روايات تاريخ الإسلام

المملوك الشارد

تتضمن حوادث مصر وسوريا وأحوالهما في النصف الأول
من القرن التاسع عشر، ومن أبطالها الأمير بشير الشهابي
ومحمد علي باشا الكبير، وابراهيم باشا، وأمين بك

تأليف
جرجي زيدان

الدار النموذجية

شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• المطبعة العصرية
بوليفار نزيه البزري - ص.ب: ٢٢١
تلفاكس: ٧٢٠٦٢٤ - ٧٢٩٢٥٩ - ٧٢٩٢٦١ ٧ ٠٠٩٦١
صيدا - لبنان

٢٠٠٩م - ١٤٣٠هـ

Copyright© all rights reserved
جميع الحقوق محفوظة للناشر
لا يجوز نسخ أو تسجيل أو إستعمال أي جزء من هذا الكتاب سواء كانت تصويرية أم الكترونية أم تسجيلية دون إذن خطي من الناشر.

E. Mail
alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb

موقعنا على الإنترنت
www.almaktaba-alassrya.com

أبطال الرواية

محمد علي باشا الكبير	: والي مصر
ابراهيم باشا	: ابن محمد علي وخليفته
اسماعيل باشا	: محمد علي
الملك النمر	: ملك شندي في السودان
الأمير بشير الشهابي	: حاكم لبنان
أمين بك	: من أمراء المماليك
غريب	: ابن أمين بك
الأميران أمين وخليل	: ابنا الأمير بشير
عبد الله باشا الجزار	: والي عكا
جميلة	: زوجة أمين بك
سالم آغا	: من ضباط جيش إبراهيم
سعيد	: خادم أمين بك

- ١ -

الأمير بشير

لبـــنان سلسلة جبال شامخة خصبة الإقليم جيدة الهواء، تشرف على بحر الـــروم، تكســـو أوديتها المزارع والغياض، وتتوج قممها الثلوج على مدار السنة. وكانت حكومته إلى منتصف القرن الماضي يتولاها أمراء من عشائر مختـــلفة، ينتهي نسب أكبرها وأطولها حكماً إلى قريش، وهي عشيرة الأمراء الشهابيين أو بني شهاب.

وقد اتخذ أكثر الأمراء الشهابيين بلدة دير القمر مقراً لحكوماتهم، وهي واقعة في سفح جبل غربي البلاد، وتشرف على وادٍ خصب يفصلها عن السفح المقابل لها. وتحدق بها — كغيرها من قرى لُبنان — بساتين حافلة بأغراس الكرم والتين والتوت وغيرها.

وفي أواخر القرن الثامن عشر، آلت إمارة لبنان إلى الأمير الشهابي المعروف بالمالطي، وكان على جانب كبير من الهمة والشجاعة والهيبة حتى أن كثيرين من اللبنانيين، رغم ما عرفوا به من القوة والجرأة، كانوا لا يقوون على التأمل في وجهه والوقوف بين يديه أو التكلم في حضرته. وذلك لأنه كان إلى جانب ما اشتهر به من العدل والحزم ذا خبرة عظيمة وفراسة قوية. وكثيراً ما كان يكشف دخيلة محدثه من أول نظرة يوجهها إليه. وتروى عنه في ذلك أحاديث غريبة يحفظها ويعجب بها العامة والخاصة. وكان يستعين على تعرف أحوال الرعية والوقوف على إتجاهاتها وميولها برجال من خاصته المعروفين بالحزم والدهاء وحسن الحيلة. يرصدون كل كبيرة وصغيرة من حركات الجماعات والأفراد، ويبلغونها إليه فتعيها ذاكرته القويّة، وينتفع بها كلما اقتضى الأمر ذلك. وهكذا كان على بينة من كل أمور رعيته، سريع المثوبة والعقاب، فساد الأمن على عهده أنحاء جبل لبنان، وصار الناس يخرجون ليلاً ونهاراً إلى أعمالهم ويسافرون من بلدٍ إلى آخر ومن مقاطعة إلى أخرى، لا يخشون أي عدوان.

وهناك في السفح المقابل لدير القمر كانت توجد قرية صغيرة تدعى (بيت الدين) فيها معبد لطائفة الدروز، فابتاعها الأمير بشير وابتنى فيها دوراً ومنتزهات ولأولاده. وجلب إليها المياه فأصبحت من أبهى المناطق منظراً وأحسنها هواء.

وكان إلى جوار بيت الدين دير منعزل، فيه جماعةٌ من الرهبان يقضون بعض نهارهم في العبادة، وبعضه في أعمال حقوق الدير من حرث وسقي وغرس وحصد وما إليها من إنتاج الجبن والزيت والخمر...

ففي مساء ذات يومٍ من أيام شهر ديسمبر سنة ١٨١٢، قضى الرهبان معظم نهارهم في جرفٍ الثلوج المتراكمة على أسطح الدير، ثم دخلوا حجرةً فيه فأوقدوا فيها ناراً وأحدقوا بها يستدفئون ويتسامرون، وهم متسربلون بعباءات مشدودة بمناطق حول أوساطهم.

ومع أنهم أغلقوا باب الحجرة ونوافذها، كان يقطع حديثهم بين حينٍ وآخر دوي الرعد وتساقط البرد على جدران الدير ونوافذه، وقصف الرياح الزوبعية التي تكثر في فصل الشتاء.

وما زالوا يتجاذبون أطراف الحديث حتى قال رئيسهم: "سمعت اليوم حديثاً أقلقني، وهو أن اثنين من بني المعلوف في قرية (بسكنتا) قتلا بطريرك الكاثوليك أغناطيوس صروف الدمشقي بالقرب من قرية (زوق مكايل). وقد تكدر الأمير بشير من ذلك كثيراً، وهو الآن بسبيل أخذ القاتل ومعاونيه بأشد العقاب".

فقال أحد الرهبان: "ما أظن أن مثل هذه الجناية الفظيعة قد حدثت إلا بعلم الأمير، ولا يغرنك تظاهره بالكدر، فإن الشهابيين لا يهمهم قتل كل البطاركة لأنهم ليسوا من دينهم".

فقال الرئيس: "لعلك لا تعلم أن الأمير اعتنق الديانة المسيحية سراً؟".

فبغت الرهبان جميعاً وقال أحدهم: "كيف كان ذلك؟ وماذا يخشاه الأمير حتى كتم أمر تنصره؟".

فقال الرئيس: "أن أعلاه تنصره تترتب عليه أضرار مادية كبيرة له، وهذا عدا ما يؤدي إليه إعلان تنصره من خروج بني شهاب كلهم عليه، لاعتزازهم بانتسابهم إلى قريش، ولعلكم ذاكرون كيف تعرض للعزل مرات في عهد أحمد باشا الجزار".

فقال الراهب: "لكن كيف يكون مسيحياً و لم نشاهده يزور كنيسة لقضاء الفروض الدينية؟".

فقال الرئيس: "أن الأمير لم يهمل أداء الصلاة المفروضة في ديننا، وقد خصص لذلك غرفة من غرف قصره، فجعلها كنيسة يصلي فيها، ولا يعرف ذلك إلا أفراد قليلون من أخص حاشيته".

فقال الراهب: "أعتقد أن الدين لا يقر مثل هذه المراءاة، ولا يجوز أن تكون المصالح الدنيوية الزائلة عقبة في سبل المتدينين المخلصين".

فقاطعه الرئيس قائلاً: "اغضض من صوتك، فللجدران آذان، وانتقام الأمير فظيع سريع كما هو معلوم".

فقهقه الراهب وقال: "أين نحن وأين الأمير بشير؟ إن بيننا وبينه أكثر من ميلين؟"

فقال الرئيس: "هذا لا يمنع أن يعلم بكل كلمة وحركة هنا، وفي أي مكان في أقاصي لبنان، وهو جالس في قصره!".

وما أتم الرئيس كلامه، حتى سمعت طرقات متوالية على الباب، فوقع الرعب في قلوب الرهبان حتى لم يستطع أحدٌ منهم النهوض لفتح الباب، وأخذوا يتهامسون فيما بينهم، باحثين عن وسيلة يبرئون بها أنفسهم.

ثم نهض أحدهم وفتح الباب، فإذا الطارق عبد أسود طويل القامة غريب الزي، وبجانبه امرأة مبرقعة، عليها ثياب سوداء حالكة، وعلى يدي العبد طفل، وكلهم ينتفضون من شدة البرد، فسألهما الراهب عن غرضهما فقال الرجل: "هل هذا المكان دير؟". قال: "نعم".

فقال العبد: "وهل تقبلوننا عندكم ضيوفاً هذه الليلة؟".

فأدخلهما وأغلق الباب، ثم قادهما إلى الحجرة التي بها الرئيس والرهبان فرحبوا بهم، ولا سيما بعد أن اطمأنوا إلى أنهما غريبان آتيان من مكانٍ بعيد، ويبدو أنهما قاسيا عذاباً شديداً من التعب والبرد.

ثم بدأهما الرئيس بالكلام قائلاً: "الحقيقة أنكما آنستمانا بزيارتكما المباركة، فمن أين أنتما؟".

فتأوه العبد وقال: "قد أتينا أيها الآب المحترم من بلاد بعيدة".

فقال الرئيس: "إذن، نأتيكما أولاً بالطعام". ثم أمر بعض الرهبان فجاءهما بطعام من اللبن والجبن و(القاورمة) والعسل، مع أرغفة رقاق، وبعض الخمرة الجيدة المعتقة التي يعز وجودها في غير الأديرة. فأخذا يأكلان ويشربان صامتين، وأماطت السيدة لثامها أثناء الأكل، فبدا وجهها كأنه البدر، ورغم دلائل التعب والشقاء والحزن كانت تتجلى فيه ملامح المهابة والجلال.

فعجب الرهبان من التناقض العظيم بين جمالها وبياضها الناصع وبين قبح وجه زميلها الأسود. وبعد أن انتهيا من الطعام جلسا يستدفئان ويستريحان، والرئيس يتأمل هيأتهما وملابسهما وحديثهما، فلاح له أنهما ليسا من لبنان، والتفت إليهما قائلاً: "هل لي أن أسأل عن سبب مجيئكما إلى هذه القرية في هذا الجو المظلم العاصف؟ قد يكون سؤالي تطفلاً، ولكن يلوح لي أنكما من بلاد بعيدة فهل حضرتما من دمشق؟".

فقال العبد: "لا يا سيدي، لكننا من إحدى قرى تلك المدينة، وفي صباح الغد إن شاء الله نشرح لكما حالنا".

فقال الرئيس: "حسناً، إنكما في حاجة إلى الرقاد الآن، وقد أعددنا غرفةً لراحتكما". ثم أمر أحد الرهبان فأخذهما إلى غرفة فيها مصباح زيتي، وعلى أرضها حصير قديم فوقه وسادتان متواضعتان لكنهما نظيفتان. واللبنانيون أهل نظافة وترتيب على اختلاف طبقاتهم حتى أفقر الفقراء منهم، فإنك إذا نزلت عندهُ لا تستنكف من مؤاكلته أو مجالسته أو الرقاد في فراشه.

وجاءهما الراهب بماء ساخن لغسل أرجلهما ثم سألهما: "أأنتما في حاجة إلى شيء آخر؟". فقال العبد: "لا نريد إلا دعواتكم الصالحة ولكم الشكر". فحياهما مودعاً، وانصرف عائداً إلى الغرفة الأولى، حيث كان الرئيس والرهبان الذين معه ما زالوا يتساءلون فيما بينهم عن أمر الطارق الأسود وزميلته الحسناء وطفلها ثم قال الرئيس: "نحمد الله على نجاتنا من غضب الأمير بشير، فقد كنت خائفاً أن يكون الطارق أحد جواسيسه".

فقال راهب: "وما أدراك أن الضيف العبد ليس من الجواسيس؟".

فقال: "ذلك لا يمكن أن يكون، إذ يفهم من مجمل حالهما أنهما غريبان، وفي صباح الغد نعلم الحقيقة".

وبعد أن أمضوا ساعة أو بعض الساعة، في مثل هذا الحديث نهضوا، وانصرف كل منهم إلى غرفته.

★★★

استيقظ الرهبان في صباح اليوم التالي مبكرين كعادتهم، وساع بعضهم إلى جرف الثلوج التي تراكمت على أبواب الغرف وأسطحها في الليل، وأخذ الباقون في مختلف الأعمال داخل الدير وخارجه.

أما الضيفان فلم يستيقظا إلا في الضحى، فحمل إليها الطعام والقهوة. ثم طلب العبد مقابلة رئيس الدير على حدة، فأجابه الرئيس إلى ذلك فورا، وقال العبد: "أعندكم للسر مكان؟".

قال الرئيس: "تكلم ولا تخف شيئاً، ولعلك تعلم أننا معشر الكهنة، حفظة للأسرار، وكل ما نسمعه من الاعترافات يبقى سراً مقدساً".

فقال العبد: "إني عالم بذلك، وهذا ما يدعوني إلى الوثوق بكم، والاعتراف لكم بكل شيء من أمرنا".

فقال الرئيس: "قل ولا تخشى أي شيء".

قال: "إننا لسنا من دمشق ولا من قراها، وإنما نحن من بلاد مصر وقد جئنا هذه البلاد فراراً من القتل".

فقال الرئيس: "وكيف ذلك؟".

قال: "إن السيدة التي معي، زوجة أمير من المماليك الذين كانوا حكاماً في مصر قبل واليها الحالي محمد علي باشا".

فهز الرئيس رأسه وقال: "وقد سمعنا أن محمد علي باشا ذبح بعض أولئك المماليك في السنة الماضية بقلعة القاهرة، أثناء الاحتفال بخروج ابنه طوسون لمقاتلة الوهابيين في جزيرة العرب".

فقال العبد: "نعم يا سيدي، وكان زوج هذه الأميرة من بين المدعوين فذُبح مع من ذُبحوا، ولم نسمع أن أحداً منهم استطاع النجاة. ثم أمر محمد علي باشا بعد ذلك بقتل كل أتباعهم في مختلف جهات مصر، فخرج العساكر من المصريين والأرناءوط والمغاربة وغيرهم، وطافوا بقصور المماليك حيث نهبوا وفتكوا بكل من وجدوه فيها".

فازداد الرئيس إصغاء، وقرب سمعه من محدثه، فواصل هذا كلامه وقال: "وقد كنت في بيت ذلك الأمير خصياً من خصيان قصره، وكنت أحبه حباً عظيماً، وكانت زوجته الأميرة حبلى، ولا غلام في السابعة اسمه سليم، فطلبت إلي الفرار بها وبابنها من وجه الموت والعار، قائلةً: (إن صدق الخدمة لا يظهر إلا في مثل هذه الحال). فحملنا ما خف حمله وغلا ثمنه، وخرجنا من المدينة في ظلام الليل على جوادين، وما زلنا نجد في المسير مع صعوبة الركوب على الأميرة المنكودة الحظ حتى بعدنا عن المدينة ووصلنا إلى مكان اختبأنا فيه إلى الصباح، ثم واصلنا السير حتى دخلنا حدود سوريا، ولا تسلّ عما قاسته الأميرة المسكينة من العذاب والمشقة وما ذرفته من الدموع السخينة، فنـــزلنا ببلدة غزة، وزعمنا للناس هناك أننا من بلاد الترك نفيا للشبهة وبعد بضعة أشهر آن وقت وضع الأميرة حملها فوضعت الغلام الذي جئنا به معنا، وسميناه غريبـــاً لأنه ولد في غربة".

فبان التأثر في وجه رئيس الدير، وأخذ يدير حبات مسبحته الصغيرة بين أصابعه في قلقٍ مكبوتٍ وهو ما زال مرهفاً أذنيه لسماع تتمة القصة، ومضى

العبد وقال:

"فلما تمت الولادة، أعملنا الفكرة في وسيلة ننسى بها تلك المصائب، ونعيش في مكان يعزي هذه الحزينة في فقد زوجها، فعملنا بالاستقصاء أن جبل لبنان من أفضل ما خلق الله من الأماكن الجيدة الهواء، فتاقت أنفسنا إلى الإقامة به، ولا سيما بعد أن سمعنا بهمة أميره وتعهده راحة رعاياه. وكنت فضلاً عن ذلك أرى في سيدتي الأميرة ميلاً إلى الإقامة بهذا الجبل، لغير داعٍ أعلمه. فخرجنا من غزة إلى يافا حيث استرحنا فيها زمناً، ثم شددنا الرحال إلى عكا، وهنا أصبنا بمصيبة لا تقل عن المصيبة الأولى".

فاشتد تلهف الرئيس لسماع ما يقوله العبد، وبلغ من تأثره أن تساقطت عبراته، لأنه كان من ذوي الشفقة والإحساس المرهف. وأتم العبد كلامه قائلاً: "تصور أيها الأب المحترم أية نكبة حلّت بالأميرة المسكينة ونحن في عكا، إذ لم يمض على إقامتنا هناك بضعة أسابيع حتى فقدت ابنها الأكبر بطريقة لم نكشف سرها حتى الآن".

فقال الرئيس: "وكيف ذلك؟".

فقال: "اتخذنا في عكا مسكناً في بعض المنازل على شاطئ البحر ترويحاً للنفس وتجنباً لانكشاف أمرنا، ورحنا نسأل عن أسهل السبل المؤدية إلى لبنان وعن أفضل جهاته للإقامة. وفيما نحن في ذلك طلب سليم إلى سيدتي الأميرة أن تأذن له في التنـــزه مع بعض غلمان الحي الذي كنا نسكنه، وكان قد رآهم ينزلون البحر بقارب صغير للتنزه، فأبت والدته خوفاً عليه من الغرق ولكنه ألح عليها حتى قبلت طلبه على أن أذهب معه. فسر بذلك كثيراً، ثم ذهبنا في تلك النزهة وعدنا إلى البر سالمين، وقد لاحظت في أثناء سير القارب بنا أن الغلام كان يتابع بنظره حركات النوتي وسكناته وطريقة استخدامه المجاذيف، فأدركت أنه أحب مهنة الملاحة. وما وصلنا إلى الشاطئ حتى وجدنا الأميرة في انتظارنا، فقبلت ولدها وعدنا إلى البيت. وشاء سوء الحظ أن كان ذلك النوتي يرسو بقاربه على مقربةٍ من منزلنا فيشده مساءً إلى

صخرة هناك ويذهب إلى بيته، ثم يأتي في الصباح فيحله ويذهب به، وهكذا. وفيما نحن في البيت وقد شغلت أنا والأميرة بإنجاز بعض المهام لغريب، انتبهت هي بغتةً وسألتني: (أين سليم؟). فقلت لها: (تركته يلعب أمام البيت). ثم خرجنا نبحث عنه فلم نقف له على أثر، ثم نظرت إلى البحر فلم أر القارب وقد كان منذ أيام لا ينفك مشدوداً بالشاطئ فقلت في نفسي: (لعله ركبه ليجرب قدرته على الملاحة فقذفته الأمواج إلى حيث لا نعلم). أما الأميرة فأخذت تبكي وتندب ولدها وتقطع شعرها حتى أغمي عليها، وعبثاً حاولت تسكين روعها، ثم سرت أبحث عن الغلام في جوار المنزل وبعثت منادياً ينشده في الأسواق فلم أقف له على أثر. وبعد أربعة أيام يئسنا من لقائه، والمصيبة الكبرى أننا لم نكن نستطيع الظهور أمام الحكومة لنطلب إليها البحث عن الغلام خوفاً من كشف أمرنا وكرهت الأميرة البقاء في تلك المدينة، فغادرناها ونحن في حالة يرثى لها من الحزن والكدر، والأميرة لا تنفك عن البكاء ليلاً ونهاراً حتى هدها الحَزن والسقم، وأصاب السقم ولدها الآخر".

قال ذلك وتساقطت العبرات من عينيه، فبكى معه الرئيس. ثم عاد العبد إلى تتمة روايته فقال: "ولما وصلنا إلى صيدا علمنا أن هذه الجهة أفضل جهات لبنان، فأخذنا في المسير من قرية إلى أخرى وقد صممنا على الإقامة بمكان منعزل، فهدانا بعض العارفين إلى هذا الدير فسرنا صباح أمس على أمل الوصول إليكم عند الظهيرة، ورافقنا رجل من بعض القرى معظم الطريق وكنا كلما سألناه عن المكان المقصود قال: (ها قد وصلنا فإنه لا يبعد أكثر من مرمى حجر أو طول رسن البغل أو مقدار شرب غليون). ونحن قد أنهكنا التعب وابتلت ثيابنا من الأمطار وقاسينا من البرد أشد العناء ولم يمكننا الركوب لوعورة الطريق. فغربت الشمس ونحن في مكان قيل لنا أنه قرية بيت الدين مسكن أمير هذه البلاد. فلما وصلنا إلى هناكَ أشار الرجل إلى مكان هذا الدير وقال: (لا يمكنني الوصول معكما إلى هناك). كل ذلك

والبرد شديد والثلوج متراكمة وقد لامنا كثيرون على قدومنا إلى هذه الأماكن في فصل الشتاء ولكن ما قدر كان".

ورحب الرئيس بمقدم الأميرة، واعداً بتقديم كل معاونة ممكنة لها، فشكره العبد وقال: "وقد حدث بعد أن فارقنا ذلك الرجل أن لقينا رجل آخر متسربل بعباءة سوداء، يظهر من هيئته أنه ليس من عامة الناس، فسألنا بكل لطف عن الجهة التي نقصدها، ولما ذكرت له أننا نقصد هذا المكان للوفاء بنذر علينا، قال: (يلوح لي أنكما غريبان). ثم صحبنا إلى باب الدير. وقال: هذا هو فاقرعوا الباب يفتح لكم). ثم ودعنا وانصرف.

فأوجس الرئيس خيفة من أن يكون ذلك الرجل جاسوساً من جواسيس الأمير بشير، ويكون قد سمع شيئاً مما قالوه ولكن تأثره بحكاية العبد شغله عن التفكير في غيرها، فالتفت إليه وسأله: " ما اسمك؟". فقال: "اسمي سعيد واسم سيدتي الأميرة جميلة".

فقال: "طب نفساً يا ولدي وقر عيناً، قد حفظت كل ما ذكرته من سركما في صدري، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يعزي الأميرة ويهبها الصبر الجميل على أحزانها، فإذا شئتما الإقامة عندنا فمرحباً بكما وأهلاً وسهلاً ،وإن رأيتما غير ذلك فإني مستعد لقضاء كل ما تحتاجان إليه، ولا يعنينا أن تكونا مسلمين لا مسيحيين، فإننا جميعاً نعبد الله الواحد القهار. وفضلاً عن ذلك فالديانة الإسلامية هي ديانة مولانا السلطان صاحب البلاد".

★★★

عاد رئيس الدير مع سعيد إلى الغرفة التي بها الأميرة جميلة ليعزيها، وكان باب الغرفة مغلقاً، على أنهما ما كادا يقتربان منه حتى سمعا صوت ندبها وبكائها فوقفا خارج الباب صامتين فسمعاها تقول: "وانكبتاه أين أنا الآن وأين زوجي العزيز وأين حشمه وخدمه؟ وأين أنت يا ولدي سليم؟ أصرت طعاماً للأسماك وتركت والدتك المسكينة تتقلب على جمر الغضا؟ أما كان الأولى بي أن أموت وأستريح من شقاء هذا العالم؟ أما من وسيلة يا إلهي

للنجاة من هذه المصائب؟ إنني أخشى أن أطلع الأمير على حقيقة أمري فيزيده ذلك غضباً علي وينتقم مني، ولكن لعله يرثي لحالي ويقبل توبتي".

ثم طرق سعيد الباب طرقاً خفيفاً لئلا يزعجها، فسكتت عن البكاء وقالت: "من الطارق؟".

فقال: "إنني يا سيدتي عبدك سعيد". ففتحت الباب، وإذا هي في حالة يرثى لها وقد بللت ثيابها بالدموع وحلت شعرها ومزقت ثوبها وخنقتها العبرات حتى كاد يغشى عليها، فتقدم وأخذ بيدها وأجلسها، ثم استأذن للرئيس بالدخول فأذنت، فدخل وقد تعجب من فرط جمالها وزاد ذلك حزنه عليها حتى لم يعد يمكنه إمساك دموعه لكنه تجلد وقال: "تجلدي يا ابنتي، فإن الأحزان تجلب الأسقام، واشفقي على نفسك وعلى رضيعك وأتركي الأمر لله، فهذا سعيد خادمك الأمين قد أطلعني على حقيقة حالك وعاهدته على أن يبقى ذلك سراً بيننا. وإعلمي يا ابنتي أني مشاركٌ لكما في جميع أحزانكما، وسأبذل جهدي في تعزيتك ومرضاتك فاتخذيني لك أباً أو صديقاً".

وما زال الرئيس يسكن روعها ويعزيها حتى مسحت دموعها متجلدةً قائلة: "لتكن مشيئة الله".

وكانت وردية اللون، مستديرة الوجه، سوداء العينين واسعتهما قليلاً مع حدة وذبول، رشيقة الحركة مع تعقل ووقار.

ثم استأنف الرئيس حديثه قائلاً: "إن رهبان الدير لا علم لأحد منهم بقصتكما، وهم الآن خارج الدير للعمل في الحقول، فإذا جاءوا وسألوني عن أمركما فماذا أقول؟".

فقال سعيد: "إذا أذنت لي فإني أذكر لهم أننا جئنا من صيدا لوفاء نذر علينا".

وفيما هم في ذلك سمعوا صوت نداء في الدار فخرج الرئيس وإذا بأحد رجال الأمير بشير قد جاء يدعوه إليه في قصره ببيت الدين.

فوقع الرعب في قلب الرئيس، لكنه تجلد لعلمه ببرائته، فلبس جبته وقلنسوته ومضى حتى أتى القصر فلما وصل إلى قاعة المجلس وقعت المهابة في قلبه لأنها على كثرة من فيها لا يسمع فيها صوت وجميعهم جلوس كأن على رؤوسهم الطير. وكان جلساء الأمير لا يستطيعون أن يتفوهوا أمامه بكلمة من تلقاء أنفسهم لعظم هيبته لكن رئيس الدير كان أجرأ من غيره في مجلس الأمير.

وكان الأمير جالساً على مقعد في صدر القاعة، مسنداً يده إلى وسادة فوقها طبنجة محشوة لا تفارق مجلسه. وليس على ذلك المقعد غيره لأنه لم يكن يأذن لأحد في أن يجلس بجانبه. وكان عليه قباء بسيط (قفطان) من صنع دمشق، فوقه منطقة من الصوف من صنع كشمير، وقد تقلد في منطقته الدواة والخنجر المرصعين، وفوق القباء جبة من الفرو الثمين وعلى رأسه إذ ذاك العمامة الكبيرة. أما الطربوش فلم يلبسه إلا في آخر أيام حكمه إذ أصبح الطربوش من ذلك الحين شعار الدولة العثمانية يلبسه كل من يتولى مصلحتها.

وكان الأمير ربعة في الرجال، واسع الصدر، عريض الكتفين. أما هيئته فكانت أقرب إلى هيئة الأسود منها إلى الآدميين، لأنه كان عريض الجبهة عاليها، غليظ الأسرة، له حاجبان يتدلى الشعر منهما على عينين براقتين كأنهما تتقدان ناراً، وبينهما أنف كبير به إنحناء قليل، تحته شاربان طويلان ولحية متجعدة مسترسلة على صدره، وقد وحط الشيب سعره قليلاً.

وكانت أرض القاعة مفروشة بالطنافس والسجاد الثمين، فدخل الرئيس بعد أن نزع حذاءه خارج الباب كما هي العادة فرأى الأمير جالساً وبين يديه أصحاب مجلسه فحياه قائلاً: "عم صباحاً يا سيدي الأمير".

فرد الأمير التحية، وأذن له في الجلوس، ثم أمر له بالقهوة والغليون ولم يسر الرئيس هذا الإكرام لقلقه بسبب دعوته إلى هذه المقابلة على أثر ما حدث أمس.

ثم نظر الأمير إلى الرئيس بعينيه الحادتين اللتين تتجلى فيها ملامح الشجاعة والذكاء، وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة زادته هيبة ووقاراً، وقال بصوته الجهوري: "يا أبانا إن غرباء نزلوا عليك أمس فمن هم؟".

قال الرئيس: "إنهم يا سيدي الأمير قادمون من صيدا لوفاء نذر للدير".

فقال الأمير: "أتتجاهل الحقيقة أم أنت لا تعلمها؟ ولكن الأمير بشير لا يخفى عليه شيء كما تعلم".

فنهض الرئيس على قدميه وقال: "العفو يا سيدي الأمير، إن سعادتك تعلم أننا عبيد مطيعون مخلصون، وما عهدت علينا إلا نصدقك القول، وليس هؤلاء أول من جاءونا لمثل ذلك، فإن الدير مشهور بالكرامة وتأتيه النذور من جميع أنحاء العالم".

فأقعده الأمير وسأله: "من أي طائفة هم؟". فقال الرئيس: "مهما يكن من أمر طائفتهم فالدير يقبل النذور من جميع الطوائف والملل بلا استثناء!".

فضحك الأمير وقال: "جئني بهم". فقال: "سمعاً وطاعةً". وخرج وهو في حيرة خوفاً على جميلة من غضب الأمير.

فلما وصل إلى الدير وجد جميلة وسعيداً قد عيل صبرهما من الانتظار، فأخبرهما بما كان وشجعهما وقال لجميلة: "انهضي يا ابنتي وألبسي أحسن ما عندك وهلمي مع سعيد، وأنا أسير بكما إليه، لعل لكما في ذلك أخيراً".

فقالت جميلة: "وكيف نفعل بغريب؟".

قال الرئيس: "نتركه هنا ونوصي به أحد الرهبان". قالت: "لا لا. لا أفارقه قبل أن تفارق روحي جسدي، فإنه وحيدي ومنتهى أملي، وقد كفاني من فقدت".

فقال الرئيس: "إذن نأخذه معنا".

- ٢ -

في بيت الدين

سار الجميع حتى أتوا قصر بيت الدين، مقر الأمير بشير، فدخلوا من باب السور إلى صحن القصر الخارجي فإذا هو أشبه بميدان متسع محاط بالأشجار. في صدره باب الصحن الداخلي يتصل إليه ببضع درجات، وفوق عتبته بيتان

من الشعر يسجلان تاريخ بناء القصر. دخلوا من هذا الباب والحراس وقوف هناك يتأملون السيدة الجميلة وهي تسير خلف رئيس الدير ومعها سعيد وولدها الغريب. ولما وصلوا إلى الصحن الداخلي وجدوه مرصوفاً بالرخام، وفي وسطه بركة رخامية، وحوله غرف بعضها يؤدي إلى إلى مماش تشرف على ما وراء القصر من البساتين والأودية والجبال. وفي صدر ذلك الصحن قاعة الأمير يصعد إليها بدرجات، وإلى كل من جانبيها حارسٌ يقف ببندقيته ليمنع الدخول بغير استئذان.

فلما وصل الرئيس عرفه الحراس فلم يمنعوه من الدخول، فدخل هو أولاً وأخبر الأمير بشيراً بمجيء السيدة وعبدها، راجياً أن يصرف في مجلسه قبل أن يأمر بإدخالها لئلا تستحي، فصرف الأمير من في المجلس. ودخلت جميلة فرأت الأمير جالساً على مقعده وقد أشعل غليونه، وهو بادي الهيبة والوقار وعلى محياه هيئة الأسود. فلما وقع نظرها عليه اضطرب قلبها وارتعدت فرائصها. لكنه هون عليها ودعاها إلى صدر القاعة ورحب بها تخفيفاً لرعبها، ثم استأذن سعيد ودخل وجلس متأدباً قرب الباب.

ونظر الأمير إلى جميلة وطفلها وتأمل في ذلك العبد الطويل رفيقها فاستغرب أمرهما، وقال لسعيد: "ما صلتك بهذه السيدة؟".

فوقف سعيد احتراماً وقال: "إنني يا مولاي خادمٌ لها".

فالتفت إليها قائلاً: "أين هو زوجك يا سيدة؟". فأطرقت ولم تستطع الجواب إذ خنقتها العبرات وأخذت تتساقط على خديها كاللؤلؤ المنثور، فأثر ذلك في قلب الأمير تأثيراً عظيماً وأدرك أن زوجها قد مات.

ثم سأل سعيد قائلاً: "من أين أتيتم؟". فقال: "أتينا من مدينة صيدا، لنفي بنذر علينا لهذا الدير".

فقال الأمير: "من أوصلكم إلى باب الدير مساء أمس؟". فقال: "أوصلنا رجل لا نعرفه إذ لم نر وجهه تماماً، على أنه فيما يلوح لي فوق مستوى العامة".

فقال: "هل تعرفونه إذا رأيتموه مرةً أخرى؟". قال: "نعم يا سيدي".

فتبسم الأمير، فأدرك سعيد أن ذلك الرجل الذي أوصلهم إلى الدير إنما هو الأمير نفسه، فأعجب بسهره على حالة الأمن في البلاد. وطوافه وحده لذلك، مع كثرة الأعداء المترصدين له في كل مكان.

ثم استأنف الأمير حديثه فقال: "ذكرت أنكما من مدينة صيدا، ولكن يبدو من لهجتك أنكما من مصر". فقال سعيد: "إن المرحوم سيدي سكن مع أسرته زمناً في مصر فاكتسبنا اللهجة المصرية".

قال الأمير: "هل أنتما عازمان على العودة إلى مصر قريباً؟".

قال: "هذه مسألة فيها نظر، لأني أرى سيدتي تكره الإقامة بها بعد أن فقدت فيها رفيق حياتها، وليس لها فيها مصلحة، على أننا لم نفقد سيدي هناك وحده بل فقدنا معه كل متاعنا. وخيرٌ لنا أن نقيم هنا في رعاية مولانا الأمير بقية حياتنا". قال ذلك و لم يقدر أن يتمالك عن البكاء وكذلك جميلة والرئيس.

أما الأمير فكان ثابت الجنان قوي الجأش فلم يظهر عليه شيء من التأثر، ثم التفت إلى جميلة وقال: "إني أقبلكما في بلادي بكل ترحابٍ، بل أدعوك أن تقيمي عندي كأعز من في داري".

فأشارت جميلة بملامح وجهها أنها تقبل الدعوة بالشكر، ثم استوت على قدميها أمام الأمير كأنها من حور الجنان والدموع ملء عينيها وخاطبته بكل رزانة ووقار قائلة: "إننا نشكر الإله الحي الأزلي الذي هدانا هذا السبيل وقادنا إلى أعتبابك أيها الأمير، فقد جبرت قلوبنا وخففت مصابنا، فوجبت علينا طاعتك والانقياد إلى أمرك".

فأشار الأمير إلى بعض الخدم أن يذهب بالسيدة إلى دار الحريم، وأوصى بما يلزم لإكرامها، ثم حمل سعيد ولدها غريباً وخرج خلفها من القاعة، حيث ودعت الرئيس وقالت له: "لن أنسى يا حضرة الأب فضلك علينا فعسى أن يقدرنا الله على مكافأتك، فأسألك أن تذكرنا وأن تزورنا من وقتٍ لآخر". فوعدها بذلك وانصرف.

وبعد انصراف جميلة والرئيس عاد سعيد إلى الأمير وقبل يديه وأثنى على معروفه ووقف ينتظر أمره، فاختبره الأمير، ولما وجد أنه يعرف التركية تكلماً وكتابةً ويحسن العربية، ألحقه بحاشيته الخاصة، فشكر سعيد فضله وخرج.

أما جميلة فخرجت من القاعة إلى الصحن الداخلي، فرأت بجانب باب القاعة باباً كبيراً مرصعاً بالفسيفساء الجميلة يؤدي إلى دار صغيرة بها ممر ينتهي إلى غرف الحريم. فأوصلها الرجل إلى هذه الغرف وسلمها إلى الخصيان فذهبوا بها إلى قاعة الاستقبال المفروشة بالسجاد الثمين وفي جدرانها نقوشٌ بديعة. ثم مضى بعضهم لإبلاغ زوجة الأمير نبأها، فجاءت ومعها بعض سيدات القصر لاستقبالها ورحبت بهم كثيراً. ولما تأملتها تساقطت العبرات على خديها رغم إرادتها. ثم أخذت غريباً وجعلت تتأمل فيه وتقبله لانه كان بارع الجمال، وتداول نساء القصر حمله وجعلن يقبلنه داعيات له بطول العمر، وأن يحفظه الله من أعين الحساد.

فاستأنست جميلة بذلك، وإن كان قلبها لا يفرح لشيء بعد أن فقدت زوجها وولدها وقاست ما قاسته من المشقة والاكتئاب، ولهج لسانها بالشكر على ما لقيته من الترحاب وحسن المعاملة من زوجة الأمير.

وفي مساء ذلك اليوم، جاء الأمير إلى دار الحريم، وسأل زوجته عن جميلة، فقال: "إنها والله لسيدة فاضلة كاملة ليس فيها عيب". فأخبرها بأمره معها إلى أن قال: "ومما حملني على إكرام هذه السيدة فضلاً عن انكسار قلبها وما هي عليه من الكمال، أني رأيت فيها مشابهة تامة لك، حتى أني حين شاهدتها استأنست بها وعاملتها معاملة القريب ووجدت في نفسي ميلاً لإكرامها".

فقالت: "لقد قلت الصواب يا مولاي، وهي تشبه صديقةً لي من بنات عائلتنا عرفتها منذ الصغر رحمها الله. ولذلك استأنست بها ولم أستطع إمساك دموعي عند مشاهدتها لتذكري تلك القريبة العزيزة التي ذهبت ضحية تعصب أبيها".

ثم دعا الأمير جميلة فحضرت وهمت بتقبيل يده، فأمسكها قائلاً: "انظري أيتها السيدة، لقد قدر الله لك أن تصلي إلينا، وإن ذلك لمن بواعث سرورنا

ولا سيما أن الست (يريد امرأته) قد أحبتك واستأنست بك، فلك من الآن فصاعداً كل ما تطلبينه، واعلمي أني أقدم لك كل ما تحتاجين إليه عن رضا ورغبةً مني. إذ يظهر أنك من قومٍ كرام، ولا حاجة بي إلى معرفة نسبك لأني علمت أنك لا تريدين التصريح به عندما كلمتك صباح هذا اليوم، وإنما أسألك أن تقترحي كل ما تريدينه".

وكان وجه جميلة أثناء ذلك يتقلب بين الاصفرار والاحمرار، ثم خنقتها العبرات وتنهدت تنهداً خفيفاً. فلما أتم الأمير كلامه قالت له وهي مطرقة: "ليس لي عندك اقتراح ولا وصية إلا ولدي غريب فإنه تعزيتي الوحيدة في هذا العالم".

فقال لها: "طيبـــي نفساً وقري عيناً فإني سأعامله معاملة ولدي".

فاستأنفت الحديث قائلة: "وأتقدم لسيدي أن يسمح لي من وقتٍ لآخر بمشاهدة ذلك العبد الأمين بل الصديق الوفي سعيد، فإنه كان سبباً في حفظ حياتي وقاسى من أجلي مشاق عظيمة".

فأجابها إلى ذلك على أن يذهب إليها مرةً في كل أسبوع. فأثنت على فضله وأكبت على يده لتقبلها فمنعها.

★★★

سكنت جميلة في بيت الأمير بشير مكرمةً معززةً وكان سعيد يتردد عليها من وقت إلى آخر وهي تستأنس به وتتحدث معه فيما بينهما من الأمور التي لم يتطلع عليها إلا رئيس الدير. وكان هذا يغتنم كل فرصة لزيارتها وتعزيتها.

أما غريب فكان ينمو ويشب عقلاً وجسداً، حتى بلغ الثامنة من العمر، ولكن الناظر إليه كان يظنه ابن خمسة عشر سنة. وكان يظن نفسه ابن الأمير بشير لأن أمه كتمت عنه كل ما يتعلق بأبيه. وقد وكل الأمير تعليمه وتثقيفه إلى نديمه المعلم بطرس كرامه من علماء حمص، وكان ذا بصر باللغة والشعر ويعلم الأمير أميناً ابن الأمير بشير.

ورأى المعلم بطرس في غريب ذكاءً غريباً، وقريحةً وقادة، فأحبه وازداد رغبةً في تعليمه لفرط ذكائه ولطف خلقه. وكان طويل القامة على صغر سنه، حاد العينين كبيرهما، عريض الجبهة، رشيق الحركة، ساكن الجأش حاد الذهن سريع الانتباه.

ولا حاجة بنا إلى وصف مقدار فرح والدته به، ولكنها لم تكن تظهر له استحساناً بل كانت تظهر له أنها تنتظر منه أكثر من ذلك.

وكذلك أحب غريب الأمير محبةً عظيمة ممزوجة بالاحترام. أما سعيد فكان معجباً بالأمير بشير لأنه لم يشاهد في حياته رجلاً مثله فيمن اختلط بهم من المماليك والأرناؤوط والمغاربة والانكشارية. وكان إذا خاطبه في أمر كأنه يخاطب رجلاً أعلى رتبةً من البشر فلا يستطيع التكلم إلا مطرقاً، ولا سيما إذا دخل مجلسه فرآه على كثرة من هناك من الأمراء والمشايخ قد ساده السكون، فلا يسمع فيه إلا صوته الجهوري آمراً أو ناهياً.

— ٣ —

في القاهرة

لما عزم الأمير بشير على السفر إلى مصر سنة ١٨٢١ بسبب تهديد والي البلاد إياه بالقتل كان في بلدة خارج بيت الدين، فدعا ولديه خليلاً وأميناً ليرافقاه. وكان أمين شديد التعلق بغريب لأنه كان رفيقه في التعليم، فتقدم إلى المعلم بطرس أن يستعطف الأمير لعله يأذن لغريب في مرافقته إلى مصر. وكان الأمير ممن يصغون إلى كلام رجال العلم، وزد على ذلك أنه كان يحب المعلم بطرس خاصةً ويثق به لأنه نديمه، فقبل الأمير توصيته. كل ذلك وجميلة لم تعلم بشيء. فلما بلغها ورود الأمر بسفر ابنها وقع الرعب في قلبها لأنها تمقت الأرض التي فقدت فيها زوجها وخرجت منها خروج اللصوص. فدعت سعيداً إليها وخاطبته على حدة قائلة: "ما العمل يا سعيد؟ إن الأمير بعث إلى غريب كي يرافقه إلى مصر، وأنت تعلم شدة تعلقي به وكيف زهدت الدنيا من أجله، ولا يخفى عليك أنه صغير السن لم يتجاوز العشرة، ثم هو ذاهب إلى بلادٍ قتل فيها أبوه وأقام بها

قاتله وسيمر على أرض فقد فيها أخوه". ثم أطرقت وتنهدت.

فأجابها سعيد: "اصبري ولا تجزعي فإن سيدي غريباً لا خوف عليه، لأنه مسافر مع عصبة قوية من الرجال. وأما أنه ذاهب إلى حيث قتل أبوه، فهو غير عالمٍ بذلك، ولا يعرفه أحد بهذه الصفة في الدنيا كلها إلا رئيس الدير. ولعل بقاءه هنا الآن أكثر خطراً عليه لأن الأمير سائر إلى مصر لاضطراب الأحوال هنا".

فقالت جميلة بلهفة: "ما هذا الاضطراب؟".

فقال: "لا تخافي يا سيدتي، إنها إختلافاتٌ سياسية لا تمس الأشخاص".

فقالت: "ألا تريد أن تخبرني ما هي؟".

فقال: "لا يخفى عليك أن إمارة سيدي الأمير في لبنان تابعة لولاية عكا، وإن عبد الله باشا والي عكا من قبل الدولة العلية. وقد اتحد الاثنان في السراء والضراء، ثم حدث أن غضبت الدولة العلية على عبد الله باشا لما تقدم ضده من الشكاوى فأمرته بأن يسلم زمام الأحكام، ولما لم يفعل أمرت درويش باشا أحد وزرائها بأن يخرج الحكومة من يده قهراً، وقد بدأ هذا فأخرج إمارة لبنان من يد الأمير بشير إلى يد الأمير عباس، وأراد سيدي الذهاب إلى عكا لمباحثة عبد الله باشا في الأمر، فبعث درويش باشا جنداً يقطع عليه الطريق، ولما عزم على المسير ليطلب وساطة محمد علي باشا والي مصر في عفو الباب العالي عن عبد الله باشا".

فنهضت جميلة مرتعدةً وقالت: "ويلاه يا سعيد كيف نبقى نحن هنا والبلاد في قبضة أعدائنا وليس لنا من يحمي ذمارنا. يا للفضيحة".

فأجابها سعيد قائلاً: "أجارنا الله من الفضيحة يا مولاتي، إننا لا نزال في حمى الأمير في أمن من طوارق الزمان، فإن العرين لا تقربه الثعالب ولو غاب الأسد عنه، ثم إن كل نساء الأمير ما زلن هنا، وهو أحرص على عرضه منه على حياته. وقد علمت ان الأمير عباساً قد عاهد سيدي سراً على أن يحمي ذمار بيته في غيبته، وعلى أي حال لاأظن أن هذه الحال تدوم، فقد علمت

أن أمارة لبنان قد خرجت من الأمير منذ تولاها إلى الآن مرات ثم عادت إليه، والناس مجمعون على أنه ما من أحد يليق بها منه، فقد طالما خرجت من يده على يد أحمد باشا الجزار الذي كان يبيع إمارة لبنان بيعاً فيسلمها لمن يدفع الرشوة الكبرى حتى أنه نفى الأمير بشير وحاربه غير مرة، ومع كل ذلك لم تثبت إمارة لبنان لسواه. وأنت تعلمين كفايته ومحبة الرعية له، فلا خوف علينا بإذن الله، والذي نجانا من مصر قادر أن يحفظ حياتنا هنا".

فقالت: "جميلة: "هل أنت واثق بذلك يا سعيد؟" قال: "نعم، وعلى كل حال أرى سفر سيدي غريب أفضل من بقائه هنا، كما أننا لا نستطيع مراجعة الأمير فيما طلب لأنه كما تعلمين يكره المراجعة فيما يقوله، ونحن نعلم يقيناً أنه يحب سيدي غرياً كأحد أولاده، وفي معتقدي أن الولد إذا قاسى مشاق الغربة في صغره يشب محنكاً عالماً بأحوال الدنيا. ويا حبذا لو أستطيع مرافقته منعاً لبلبالك، غير أن دون ذلك موانع عدة منها أنني أخشى انكشاف أمري هناك، ولا آمن أن أتركك وحدك. إذ ربما تحتاجين إلى خدمتي هنا. أما غريب فسيسير في معية أسد الغاب وبطل هذا العصر فلا خوف عليه بإذن الله".

فتنهدت جميلة وقالت: "إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون، وليس لنا إلا الاتكال على الله والتمسك بالصبر الجميل".

وبينما هما في ذلك إذ دخل غريب ووجهه يطفح سروراً، فتقدم إلى والدته وقبل يدها على عادته ثم قال لها: "إن أبي (يريد الأمير بشيراً) قد بعث إلي لكي أسير إليك مع أخي أمين، ومن هناك نسير جميعاً إلى مصر فهيا بنا نذهب". فقبلته وقالت: "أنا لست ذاهبة معكم يا ولداه، وإنما أنتظركم هنا". فاغرورقت عيناه بالدموع وسكت هنيهة ثم قال: "فليذهب سعيد". فقال سعيد: "حبذا ذلك يا سيدي، ولكني باق هنا مع سيدتي ننتظر رجوعكم، فعسى أن يحلو لكم السفر لأن بلاد مصر لطيفة ولا سيما في فصل الشتاء".

ثم ودعته والدته بعد أن قبلته وقالت: "سر يا ولدي في حراسة الله ورعايته، وأستحلفك ألا تنسى والدتك في سفرك". فبكى غريب وقال:

"كيف أنساك يا أماه وقد ربيتني في حجرك أعواماً؟" فقالت: "وأحب منك أن تكتب لي كلما سنحت لك الفرصة وتخبرني عما تشاهده في سفرك تعزية لقلبي عن بعدك".

وفيما هم في ذلك قرع الباب وإذا بالخادم يطلب الأمير غريباً ليسير حسب طلب الأمير بشير، فنهضت والدته وقبلته، وودعها وسار مع الرسول، ومضى مع أولاد الأمير الآخرين وأعين جميلة وسعيد ترافقهم حتى توارروا.

كانت هذه أول مرة سافر فيها غريب خارج لبنان. وقد سار راكباً جواداً مطهماً وقد جعل على رأسه كوفية من الحرير فوقه (الجمدان) المزرر بأزرار القصب. وكان على صغر سنه يحسن ركوب الخيل شأن أولاد أمراء لبنان ولا سيما الأمير بشير، وكان الركب يلتفتون إلى غريب بنوع خاص ويلاطفونه مراعاة لصغر سنه وجماله ودعته، فإذا وصلوا إلى مكان أو قرية قال السياس لبعضهم: "هل نخبر الأمير غريباً ليتمتع بذلك المنظر". وكان يقابل ذلك منهم بالبشاشة واللطف والثناء.

وما زال الركب سائرين إلى المساء، فباتوا في إحدى القرى، ثم نهضوا لمواصلة السير في الصباح التالي. وما زالوا بين حلٍ وترحال حتى التقوا بالأمير بشير فسلموا عليه وقبلوا يديه، وسار الركبان معاً وجدا السير نحو مصر. وكان عددهم ينيف على مائة فارس ومعهم الخدم والحشم، والناس يتقاطرون من القرى والبلاد إلى الطريق لمشاهدة الأمير بشير الذي طالما سمعوا به.

ولما بلغوا إلى الشاطئ نزلوا بعدتهم وخيلهم في مراكب سارت بهم إلى قرية بقرب دمياط، فبعث كاشف دمياط يسأل الأمير عن سبب مجيئه، فأجابه بأنه جاء ليتشرف بمقابلة عزيز مصر. فبعث إليه الكاشف أن يبيت تلك الليلة في القرية وفي الغد يدخل ثغر دمياط، فنزل الأمير بحاشيته وأولاده في تلك القرية، وبعث إليهم الكاشف ما يحتاجون إليه من الزاد والعلف، ثم أعدت لهم الأطعمة وبعد تناول الغداء والقيلولة خرجوا إلى الحقول والمزارع

يسرحون الطرف في أرض مصر.

أما غريب فأقام بالخيمة، وقد أعد ورقاً وحبراً وجلس يكتب إلى والدته لأن خياله لم يبرح في ذلك السفر مخيلته مع ما اعترضه في طريقه من لبنان إلى مصر من المناظر العديدة المختلفة، فأخذ يروي لها ما شاهده في سفره، ويبلغها خلال ذلك عواطف الشوق والحنو. ولما أتم الكتاب خرج من الخيمة فلم يرى أحداً غير الخدم والسياس وقد سرحوا الخيل للمرعى في تلك المزارع، فتأمل فيما حوله من الأرض فإذا هي مستوية السطح تربتها مائلة إلى السواد، لا شيء فيها من المرتفعات أو الجبال، فتذكر ربى لبنان وأوديته وينابيعه وقصر بيت الدين وما يشرف عليه منها ثم ذكر والدته وما أوصته به، فخفق قلبه شوقاً واشتد به ذلك حتى لم يتمالك عن البكاء. وكانت الشمس قد مالت إلى الغروب فجعل ينظر إليها من وراء الأفق بما لبسته من الحلل القرمزية والذهبية والفضية مما يأخذ بالعقول، غير أن ذلك لم يكن ليشغله عن تذكر والدته والحالة التي شاهدها بها في المرة الأخيرة، فندم على مجيئه وود أن يكون طائراً ليعود إلى بيت الدين ليشاهدها ويقبل يدها.

وفيما هو في تلك الهواجس عاد الأمير وأولاده وهم يتحدثون بما شاهدوه من خصب تلك الأرض وطيب زرعها، فلما وصل الأمير إلى فسطاطه رأى غريباً فقال له: "أين كنت يا ولدي، ولم لم تذهب معنا؟". فاعتذر بأنه كان يكتب كتاباً إلى والدته، ثم دفع إليه الكتاب وقال له: "أسألك يا سيدي أن تبعث به إلى والدتي". فوعده بذلك.

وبعد قليل حضر العشاء فتناولوه وذهب كل منهم إلى فراشه طلباً للراحة على أثر ما قاسوه من وعثاء السفر.

وفي الصباح استقبلهم الكاشف مرحباً، وكان قد بعث بخبرهم إلى محمد علي باشا في الإسكندرية، فأمر بأن يسير الأمير إلى القاهرة مكرماً وكتب إلى مديره هناك أن يستقبله ومن معه ويقدم لهم الإكرام والميرة، ويبلغه تهنئته إياه بالسلامة.

فركب الأمير وبطانته حتى وصلوا إلى بولاق ميناء القاهرة، فبعث مديرها

لاستقباله حنا البحري الحمصي، فرحب به وأخبره بأن العزيز في الإسكندرية، وسيقدم قريباً ثم سار به وبأولاده إلى جزيرة الروضة مقابل مصر العتيقة وأنزله في قصر الخازندار.

ولما وصل غريب إلى القاهرة أعجبه اتساعها وكثرة الناس فيها لأنها أول مدينة رآها بهذا الاتساع، فأخذ يسأل من حوله عن كل جديد شاهده، وكانوا يصفون له ذلك وصفاً دقيقاً، فلما جاءوا جزيرة الروضة استغرب أمر تلك الجزيرة القائمة في وسط النيل المبارك، وما زالوا حتى نزلوا القصر على الرحب والسعة وفيه كل ما يحتاجون إليه، وفي تلك الليلة كتب غريب إلى والدته ما حدث له في كتاب آخر.

وفي الصباح ذهب الأمير لمقابلة إبراهيم باشا في قصره بضواحي القاهرة، ورافقه ابنه. أما غريب فأوصى به الأمير أحد رجال القصر المدعو أحمد، وكان فيما مضى من جنود محمد علي ثم تولى خدمة ذلك القصر وكان يخرج بغريب للتزهة أثناء غياب الأمير بشير، فسر غريب بذلك لأنه لصغر سنه لم تكن تلذ له المقابلات الرسمية.

فخرج به وبعض حاشيته من رجال الأمير ودار بهم حول الجزيرة حيث أراهم المقياس وشرح لهم طريقة قياس النيل به، ثم ركبوا قارباً عبروا به النيل إلى الشاطئ الآخر فأعجب غريب بعظم ذلك النهر، وكان على صغر سنه مدركاً فطناً لمعرفة حقائق الأشياء، فكان ينظر وهو في القارب إلى كل من ضفتي النيل متأملاً فيما هناك من مزارع الحبوب وغياض النخيل، حتى نزلوا عند مصر العتيقة فجعل غريب يتأمل مبانيها ويسأل عن كل شيء فيها.

وكان أحمد ينظر إلى ذلك الغلام ونباهته وذكائه ولطفه نظرة العجب، فمروا في أسواق مصر العتيقة الضيقة والناس يشيرون إلى ذلك الغلام الغريب الزي بما عليه من الملابس اللبنانية التي لم يكونوا تعودوا مشاهدتها، ولا سيما ذلك الجمدان المقصب وكميه المرسلين من كتفيه، فاستوقف غريباً بناء كبير يظهر أنه قديم

العهد، في جدرانه تهدم، وهو أشبه بالحصون منه بالبيوت، فسأل عنه أحمد فقال له: "إن هذا البناء دير يقال له دير النصارى، فيه كثير من المعابد النصرانية والأديرة". فداروا حوله من الخارج مارين ببابه الصغير الذي يتصل إليه بانحدار، ثم وصلوا إلى جداره الجنوبي فإذا فيه برجان هائلان بينهما عتبة علوية لباب كبير فقال غريب: "إن الأديرة في بلادنا على غير ما هي هنا، فإني لم أشاهد مطلقاً بناء بهذا العظم و لم أرى في الأديرة مثل هذه الأبراج".

فقال أحمد: "صدقت يا مولاي، ولكن هذا البناء لم يكن ديراً وإنما هو في الأصل حصن قديم يقال أن الفرس لما تسلطوا على مصر قبل الميلاد بقرون شادوه ودعوه باسم عاصمة بلادهم إذ ذاك فعرف بحصن بابل، وفيه حوصر المصريون عندما جاءهم عمرو بن العاص فاتحاً. ثم سكنه الأقباط وغلب عليه اسم الدير".

فأراد غريب الدخول لمشاهدة ما حواه ذلك البناء فطاوله أحمد كأنه يريد أن يريه شيئاً أعظم، وسار الجميع حتى مروا بقناطر السباع فشرح له أمرها إلى أن قال: "إن الملك الظاهر بيبرس أحد سلاطين المماليك بناها لاستجلاب الماء من النيل إلى قلعة القاهرة التي تراها بسفح هذا الجبل". وكان يظهر في معاملة أحمد أنه يحب الاختصار في الحديث وتعجيل السير إلى القاهرة. وكان غريب مشغولاً عن ملاحظة ذلك بمشاهدة ما حوله من الحقول الخصبة، ثم صعد إلى إحدى الآكام الخربة هناك فأشرف على قسم عظيم من القاهرة، عن يمينه جبل المقطم وعند سفحه قلعة القاهرة، وساروا حتى دخلوا المدينة ومروا بأسواقها".

وكان غريب يعجب من كثرة الازدحام فيها، وكانت القاهرة في ذلك العهد ضيقة الطرق ليس فيها شيء من الشوارع الحديثة المفتوحة أو المبنية على النمط الجديد، و لم يكن فيها شيء من الأشجار التي تحف بشوارعها الحديثة الآن. فإن جهات الإسماعيلية والفجالة وشبرا والتوفيقية وسائر هذه الضواحي كانت كلها حدائق وبساتين وآكاماً ومستنقعات قلما شاهدت فيها المساكن والبيوت.

وقد كان من أعمر الشوارع إذ ذاك وأطولها، الشارع الممتد طولاً من باب

الحسينية إلى باب سعادة، والشارع الممتد الآن على موازاة ذلك أوله عند باب الشعرية وآخره عند باب السيدة زينب.

★★★

ما زال غريب ومن معه سائرين حتى وصلوا إلى بركة الأزبكية فإذا بها حديقة شائقة تحيد بها ترعة محفوفة بالأشجار، فمروا على جسر إلى داخل الحديقة، فرأوا الناس يتراكضون إليها مزدحمين، فالتفت أحمد إلى غريب قائلاً: "هذه بركة الأزبكية، وقد اتفق وصولنا في وقت احتفال يقال له (الدوسة) فلنغتنم الفرصة لمشاهدتها. ولكن يجب قبل كل شيء أن تحترس من النشالين الذين يسرقون أموال الناس من جيوبهم وأيديهم ولا يشعر أحد بهم، والأحسن أن توصي أتباعك بذلك". فاستخف غريب بهذا التحذير ولكنه تقبل النصيحة بالشكر.

ثم قال أحمد: "أترى يا سيدي هذا الشيخ ذا العمامة، الراكب على هذا الجواد الأصيل الذي تراه يخطو كالعروس؟" قال: "نعم". قال: "هذا هو شيخ السعدية، وعما قليل تراه يمر بجواده فوق ظهور الناس". ثم أوقفه على مرتفعٍ ليتمكن من النظر. وبعد برهة رأى غريب الرجال ينامون منبطحين على وجوههم متجاورين بحيث تألفَ منهم جسر من الرجال، ثم جاء ذلك الشيخ وأمامه رجلان ممسكين بلجام جواده يقودانه نحو ذلك الجسر. فأحجم الفرس أولاً ثم تقدم ماشياً على ظهور الناس، والقائدان أمامه ممسكان بلجامه فأخذ يخطو على مهل، وكلما خطا على رجل نهض ذلك الرجل وراءه متبركاً به. فدهش غريب لهذا المنظر وقلبه يختلج خوفاً على أولئك الرجال من الأذى، ولكنه ازداد دهشةً حين علم أنهم لم يصب أحد منهم بسوء.

وكانت الشمس قد صارت في الهاجرة فقال أحمد: "حان وقت الظهر يا سيدي، ونحن على فرسخ من القصر ومرادنا مشاهدة ما بقي من المدينة، فهل تقبلون دعوتي لتتناولوا طعام الظهر عندي في منزلي وهو قريب من هنا،

وبذلك نستطيع إتمام تفرجنا اليوم ونعود في المساء إلى القصر؟".

فأجاب غريب الدعوة، وسار الجميع حتى أتوا شارعاً دخلوا حارة فيه اسمها حارة قيسون. فوصلوا إلى باب كبير عند بواب بعمامة بيضاء، فناداه أحمد فلما حضر همس في أذنه أن يخبر من في البيت من النسّاء بأن رجالاً غرباء سيدخلون البيت، ثم دخل أحمد وغريب ورجاله إلى صحن مكشوف في صدره باب صغير ودخلوا منه إلى دار تتصل بغرفة الاستقبال فولجوها وجلسوا على المتكآت، فقدمت لهم القهوة ثم تناولوا الطعام جلوساً على بساط حول مائدة عليها أنواع المطبوخات وفيها الملوخيا والأرز واللوم المقلية، ثم قدمت لهم القهوة مرة ثانية.

وسأل أحمد الأمير غريباً: "هل يتوسد سيدي للقيلولة؟". فلما قبل قاده إلى طابق علوي ودخل به إلى حجرة مشرفة على بيتٍ آخر مقابل ذلك البيت، فنزع غريب بعض ثيابه وتوسد.

ولم يكد غريب يضطجع حتى سمع لغطاً يتخلله صوت امرأة تنوح وتندب، فأصاخ بسمعه فإذا بذلك اللغط في البيت المقابل، فأطل من النافذة فرأى امرأةً كالبدر جمالاً تستجير من رجل رث الثياب يضربها، فتحركت في قلبه عواطف الشهامة والمروءة وأمر بعض من معه من اللبنانيين أن ينـــزلوا لإنقاذ المرأة من يد ذلك الرجل، فنزلوا بأسرع من لمح البصر بعد أن سألوا أحمد عن الطريق فأخذهم إلى باب البيت بعد أن أوصاهم ألا يخبروا أحداً بذلك، وعاد إلى غرفة غريب فإذا به مطل من النافذة ينظر إلى ذلك الرجل وقد كان يتميز غيظاً حتى هم بأن يلقي بنفسه من تلك النافذة لنصرة تلك المرأة.

فلما دخل أحمد انتبه غريب فالتفت إليه قائلاً: "ما هذا الوحش، وكيف يضرب هذه المسكينة؟".

فقال: "إن لهؤلاء يا سيدي قصة سأتلوها عليك الآن". ثم سمعا صوت رجال غرباء في تلك الديار وقد دخلوا وضربوا الرجل وخلصوا المرأة وجاءوا بها إلى بيت الحريم. كل ذلك والرجل ينادي بأعلى صوته قائلاً: "إني لكم ان

تأخذوا إمرأتي مني، أليست ملكي ولي أن أتصرف فيها كيف شاء؟". فتعجب غريب من هذا القول والتفت إلى أحمد قائلاً: "أصحيح أنها امرأته؟".

قال: "نعم يا سيدي وإن كانا مختلفي الرتبة والذوق. وسبب ذلك أنه حكم هذه البلاد منذ بضعة قرون جماعة من الشراكسة وغيرهم يقال لهم المماليك كانوا في أول الأمر خدماً في دور الخلفاء العباسيين وغيرهم، يرسلون إليهم من ولاتهم في تركستان مع هدايا أخرى بدلاً من الجزية فلما اعتنقوا الديانة الإسلامية وتعلموا، أحبهم الخلفاء وعهدوا إليهم في مصالح الدولة فقلدوا بعضهم ولاية الخراج وبعضهم إمارة السر وغيرها. وما زالت أنفسهم تتوق إلى السلطة وحب السيادة حتى تأتي لهم ذلك في أواخر الدولة العثمانية فصاروا أمراء، ولكنهم أرادوا الاستبداد فسعت الحكومة العثمانية إلى إبادتهم فلم تفز، حتى كانت أيام أفندينا محمد علي باشا عزيز مصر الحالي فعمد منذ اثنتي عشرة سنة إلى ذبحهم عن آخرهم في القلعة. ثم أمر بالاستيلاء على كل ما يملكونه من المال والمتاع، وأذن لرجاله من الجند وغيرهم في التزوج بنسائهم، فأصبح هؤلاء النساء في حالة هي شر من الموت عليهن، لأنهن بعد أن كن في عز وفخر أصبحن إماء لرجال لم يكن يقبلنهم عبيداً لهن، هذه المرأة كانت من نساء أمير من هؤلاء الأمراء فكان نصيبها التزوج بهذا الرجل، وهو من عساكر العزيز، فتراه ناقماً عليها يضربها لأقل سبب. وقد مضى على هذه المسكينة عشر سنوات أو أكثر وهي في مثل هذا العذاب يأتيها كل ليلة وقد أسكره الحشيش والخمر فيعاملها كما رأيت".

فتأوه غريب لهذه القصة حتى كاد يبكي. وفيما هم في الحديث دخلت خادمة تقول لسيدها: "إن السيدة كاملة تريد الدخول لتكلم الأمير". فسأل غريب عن تلك السيدة فقال أحمد: "هي المرأة التي نحن بصددها". فقال: "دعوها تدخل". فدخلت والدموع ملء عينيها وترامت على قدمي غريب قائلة: "إني ملتجئة إليك يا سيدي، فأتضرع إليك ورأس أبيك أن تنقذني من

هذه الورطة فتأمر رجالك بأن يحملوني من هذا المكان إلى حيث تشاءون فأتخلص من هذا الإنسان المتوحش". وكانت تقول ذلك وهي تجهش بالبكاء، فازداد قلب غريب رقةً وحنواً فأنهضها وأجلسها قائلاً: "لا تخافي يا خالتي، أنا أكلم أبي الليلة إن شاء الله وأستحلفه أن يخلصك من هذا الرجل فتذهبي معنا إلى لبنان". قالت: "يا حبذا ذاك". ثم قال لأحمد: "أتريد أن تبقيها في بيتك إلى الغد حتى نرى أبي ونكلمه؟" قال: "حسناً وإنما أخشى تبعد ذلك". فقال غريب: "لا تخف فإنني أخبر أبي بحقيقة الأمر".

فتقدمت السيدة وقبلت يد غريب راجيةً ألا ينسى فوعدها بذلك وقد امتلأ قلبه شفقةً عليها. أما زوجها فكان قد خرج يريد عرض دعواه على آغا الضابطية، فقيل له: "إن دعواك مع إن الأمير بشير الذي هو صديق حميم لعزيز مصر". فتوقف على أمل أن يسترجع امرأته باللطف.

ثم خرج غريب ومن معه، وظلوا يطوفون بالمدينة حتى وصلوا إلى قلعة الجبل فقال أحمد: "هذه قلعة الجبل، مقر ديوان الحكومة، وفيها قتل المماليك كما أخبرتك".

فلما وصلوا إلى بابها اعترضهم حارس عليه لباس لم ير غريب مثله، وهو تنورة بيضاء كثيرة الزم والتجعد لا تتجاوز الركبتين، وعليها منطقة من الحرير الملون قليلة الشد، وفوق ذلك الجمدان الجوخ المزرر، وعلى رأسه طربوش طويل مثني إلى الوراء تتدلى منه طرة طويلة، وفي منطقته غدارتان وطبنجة وخنجر، وقد تقلد سيفاً محدباً. وكان طويل النجاد مستوي القامة كبير الشاربين حاد العينين تظهر عليه ملامح الشجاعة والنشاط، فخاطبه أحمد يستأذنه في الدخول فأذن لهم، فلما دخلوا سأل غريب عن ذلك الرجل. فقال أحمد: "هذا من جماعة الأرناءوط وهم من جنود جهات البانيا في الروملي، وكان منهم تحت قيادة محمد علي باشا أول حكمه مصر أربعة آلاف وكانوا له عوناً في كثير من أعماله".

وكان دخول غريب ومن معه من باب العزب المشرف على الميدان،

ويوصل إليه بمرتفع بتل منبسط. فقال أحمد لغريب: "إن لهذا التل وهذا الباب حكاية سأتلوها عليك". ثم دخلوا إلى مضيق صخري في القلعة القائمة على سفح الجبل، أدى بهم إلى أبنية القلعة وكأنها بلد صغير لسعتها، فلما صعدوا إلى أعلى ذلك المضيق قال أحمد: "هذا هو المكان الذي ذبح فيه الأمراء المماليك، وكانوا أكثر من أربعمائة قد أتوا بالملابس الرسمية مدعوين لتناول القهوة في قصر القلعة احتفالاً بخروج طوسون باشا ابن محمد علي باشا لمقاتلة الوهابيين في شبه جزيرة العرب بإشارة من مولانا السلطان. فتناولوا القهوة في القاعـــة التي ستشاهدونها في صدر القلعة حيث مجلس العزيز، وقد وقـــف الرجـــال صفوفـــاً للخروج بالموكب، وكان العزيز قد تواطأ مع قواده على إهلاكهم فلما اقترب الموكب من هذا الباب حوصر المماليك في هذا المضيق، وأحاط بهم الأرناؤوط من جهة والمغاربة من أخرى، ثم أغلقت أبواب القلعة بغتة وقتل هؤلاء المماليك عن آخرهم، ولم ينج منهم إلا أمير عاقه شأن من شؤون بيته فجاء الاحتفال متأخراً فلما وصل إلى الباب وكان الموكب آتياً للخروج اختار التربص خارجاً حتى يخرج الموكب فيسير في أثره فوقف بجواده خارج هذا الباب فوقف ذلك التل المنبسط، ولم يمض إلا القليل حتى سمع إطلاق الرصاص ورأى الأبواب قد أغلقت، فعلم أنها مكيدة وهمز جواده طالباً الصحراء فراراً من الموت، ولم نعد نسمع عنه شيئاً".

جرى هذا الحديث وغريب ومن معه سكوت يصغون إلى أحمد، ثم أتموا مشاهدة القلعة وما فيها من المشاهد كدار الضرب (الضربخانة) ومخازن الأسلحة، وبئر يوسف صلاح الدين الأيوبي باني القلعة.

ثم جاء بهم أحمد إلى مرتفع أشرفوا منه على القاهرة فإذا هي متسعة كثيرة المباني تحيط بها البساتين المغروسة بالنخل ويتخلل منازلها الحدائق ولكنهم لم يروا في جوها الصفاء المعهود في جو سوريا لما يتخلل هواء القاهرة من الغبار المتصاعد من الطرق. وشاهدوا وراء كل ذلك نهر النيل المبارك وقد تكسرت

على سطحه أشعة الشمس فأكسبته رونقاً بديعاً، وقد دهشوا لكثرة المآذن التي تعد بالمئات.

وغادروا القلعة وقد آذنت الشمس بالمغيب فأحضر لهم أحمد حميراً ليركبوها قائلاً: "إن ركوب الحمير هنا رياضة لطيفة". فركبوها وعادوا إلى مصر العتيقة.

وسارع غريب إلى الدخول على الأمير، وكان قد عاد قبلهم، وقبل يديه، فأجلسه بجانبه وسأله عما رآه، فقص عليه أحمد قصة تلك المرأة المسكينة ملتمساً منه إنقاذها. فقال الأمير: "ما لنا ولها يا بني؟" إننا في بلادٍ غريبة" ولكن غريباً ألح عليه في ذلك حتى قبل.

وبعد العشاء، مضى غريب إلى حجرته وكتب إلى والدته بما شاهده.

— ٤ —

غريب وأمين

في صباح اليوم التالي جلس الأمير بشير لتناول القهوة وبجانبه خاصته وبينهم ولداه: أمين وخليل وغريب. وكان مقطب الوجه فاستولى السكوت على الحاضرين ولم يجرؤ واحد منهم أن يسأله عن سبب ذلك، أو أن يخاطبه في شأن الزوجة المظلومة التي وعد غريباً بإنقاذها.

وفيما هم في هذه الحال جاء أحد حراس القصر، وقال: "إن حنا البحري بالباب". فنهض الأمير لاستقباله مرحباً به وأجلسه بالقرب منه.

وبعد تبادل التحيات قال حنا البحري: "إن العزيز بعث إلى مديره بمصر يأمره بإرسال سعادتكم إلى بني سويف في الصعيد حيث تمكثون في طمأنينة ريثما يعود أفندينا من الإسكندرية فتنالون بغيتكم". ثم أفهمه أن العزيز أمر له بعشرة آلاف قرش شهرياً والعلف الكافي للخيل والدواب.

فسر الأمير، وأمر بالتأهب للرحيل، فأعدت الذهبيات والقوارب لنقل الرجال والأمتعة والزاد، بطرق النيل، فركبوا جميعاً وأخذوا يقلعون نهاراً ويرسون ليلاً على الشاطئ، ومعهم كل ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب.

وكان غريب دائم الاستفهام عما يشاهده على ضفاف النيل من الآثار، فلما مروا بالجيزة رأى من ورائها الأهرام العظيمة، وسأل عنها أحد الملاحين فأجابه بقوله: "إنها مبان هائلة من صنع الجان". فلم يعبأ بقوله، وما زال يسأل حتى علم أنها قبورٌ شيدها القدماء من ملوك مصر، اعتقاداً منهم أن أجسادهم المحنطة ستعود لها القوة بعد أجيال، وقد بنوا هذه الأهرام لحفظها من طوارئ الحدثان حتى يأتي زمن بعثها.

وفي ذات مساء رست بهم الذهبيات على الشاطئ، وأشار الأمير بالنزول إلى البر لتفقد المنطقة التي بلغوها. فكان مما لاحظه غريب أن النيل يجري في أرض خصبة يحدها من الشرق والغرب جبلان يمتدان طولاً على موازاة النيل، فأدرك لماذا سمي الصعيد بوادي النيل. وفيما هو يقارن أرض مصر بأرض لبنان تذكر أمر المرأة التي وعد بإنقاذها، فسارع إلى الأمير، فرآه جالساً أمام الخيمة التي نصبت له على ضفة النيل، وخاطبه في شأنها، فأجابه قائلاً: "قد أخبرت حنا البحري بأمرها، وكلفت أحمد أن يساعده في العمل لإنقاذها، وأكبر الظن أنها ستطلق من زوجها ويترك لها أمر اختيار محل إقامتها، ونحن يا ولدي لا نستطيع أن نحملها معنا حيث توجهنا، إذ ليس معنا أحد من الحريم، وأنت تعرف تقاليد هذه البلاد وتحجب نسائها". فقبل غريب يد الأمير وشكره.

وفي صباح اليوم التالي عادوا إلى مراكبهم، وأقاموا بها، فراحت تسير ببطء مع أن الريح هادئة لأنها كانت تسير ضد مجرى النيل. وبذلك أتيحت الفرصة لغريب لكي يمتع نظره بمشاهدة القرى والحقول والنخيل.

وما زالوا على ذلك حتى وصلوا إلى مدينة بني سويف فتلقاهم كاشفها بالترحيب، وأنزلهم بدار أعدت لذلك في بلدة الفشن على ضفة النيل.

★★★

كان الأمير بشير قد جاء معه من الشام بعدد كبير من أصائل الخيل،

أهدى منها إلى العزيز خمسة جياد، وخصص بعض ما بقي منها لركوبه وركوب أولاده وخاصته.

فلما استقر المقام بهم في الفشن، اشتاقت نفسه إلى الفروسية فأرسل يسأل الكاشف عن ميدان للعب الخيل، فأخبره بأن في البر الشرقي وراء الجبل سهلاً رملياً يصلح لذلك.

وفي اليوم التالي بكر أتباع الأمير فنقلوا الخيل والخيام إلى ذلك السهل في الضفة الأخرى. ثم لحق بهم هو وأولاده والكاشف وبقية الأتباع والخدم، ومعهم ما يكفي الجماعة كلها من الطعام والشراب طول اليوم، مع علف الخيل، وغير ذلك من الأدوات والمعدات.

وكان وصولهم إلى هناك بعد شروق الشمس بقليل، فتركوا الخدم والأتباع ينصبون الخيام ويفرشونها ويعدون الموائد وما إليها، ومضى الأمير على جواده ومعه أولاده وخاصته على جيادهم، وراحوا جميعاً يتسابقون.

وكان غريب قد تدرب على الفروسية وأتقنها منذ كان في السادسة من عمره، فإذا ركب جواده صار كأنه والسرج قطعة واحدة، كما تعلم رمي الجريد، واللعب بالسيف والترس وغيرهما، فجعل يركض جواده وقد سدل الكوفية على رأسه اتقاء الحر، ويبدي من ضروب الفروسية ما أذهل الجميع ولا سيما الكاشف ورجاله، فامتدحوا شجاعته وهمته، مما زاده قوةً ونشاطاً، وما زال كذلك حتى تعب جواده فترجل عنه، ومشى إلى حيث كان الأمير والكاشف يقفان لمشاهدة ألعابه، فقبله الأمير مهنئاً وأثنى عليه الكاشف كل الثناء.

وأعجب غريب بجواد الكاشف، فسأله: "هل تأذن لي في ركوبه لتجربته؟".

فلم يسعه إلا إجابة طلبه، ولكنه حذره جموح الجواد قائلاً: "أنه إذا جمح لم يثنه شيء". فضحك غريب وثارت في رأسه حمية الشباب فاعتلى صهوة الجواد، وكان الفرسان جميعاً قد ترجلوا فوقفوا بالقرب من الأمير بشير

والكاشف ينظرون إلى الفارس الصغير في عجب وإعجاب.

وما كاد غريب يستقر على متن الجواد حتى شعر بأنه جموح، ولكنه أبى إلا أن يركضه وهمزه بقوة فجمح واتجه به صوب الصحراء كأنه الريح، وحسب الواقفون أن ذلك كان بإرادة غريب وأنه لا يلبث أن يرجع به، ولكنه أوغل في الصحراء حتى توارى عن الأبصار، فصاح الأمير بشير برجاله قائلاً: "قد ضاع الغلام فهلم إليه".

فركب جماعة منهم جيادهم واقتفوا أثره، ووقف الأمير ينتظرهم وكأنه واقف على جمر الغضا لشدة قلقه وخشيته على غريب.

وكان الطعام قد أعد، فلما طال انتظارهم رجوع غريب، جلسوا لتناوله لعلهم يرونه راجعاً. فمضت ساعتان ولم يظهر هو ولا أحد ممن اقتفوا أثره، والتفت الأمير إلى الكاشف فإذا به أصفر الوجه مضطرب لا يستطيع أن يتفوه ببنت شفة فقال له: "ما رأيك في اختفاء غريب؟".

فقال: "الله أعلم يا سيدي، على أني أخبر سيادتكم بأن جوادي الذي جمح به لم أشتره إلا منذ بضعة أيام من أحد الأعراب، وقد قيل لي أنه جموح صعب المراس".

فقال الأمير: "هل تعرف أين يقيم الأعرابي الذي ابتعته منه؟".

قال: "أعرف أنه من عرب بني واصل القاطنين في هذه الصحراء".

فوقف الأمير وصاح قائلاً: "لا بد أن الجواد مضى إلى حيث كان في مضارب تلك القبيلة، فهل عندك أحد يعرف الطريق إليها؟".

قال: "نعم، ولكن الطريق صعب خطر".

قال: "إننا لا نعرف الخطر ولا الخوف، فائتني ببعض الخبيرين الذين يعرفون الطريق وأنا أسير بنفسي للبحث عن غريب".

فنهض خليل وأمين ابنا الأمير وقالا: "نحن نذهب في هذه المهمة".

فقال رجال الأمير: "لن يذهب للبحث عنه غيرنا". وهموا بالركوب فأبى

الأمير أمين إلا أن يكون معهم، لأنه كان يحب غريباً محبة عظيمة، وهو الذي سعى في إحضاره إلى مصر. وسرعان ما ركب جواده ومضى في مقدمتهم مع الأدلاء الذين جاء بهم الكاشف، وقد آلى على نفسه ألا يرجع إلا ومعه غريب.

★★★

انقسم الفرسان فريقين: أحدهما سار شمالاً والآخر سار جنوباً. وكان الأمير أمين في القسم الجنوبي، ومع كل من الفريقين خبير عارف بالطريق. واتفق الخبيران على أن يلتقي الفريقان عند الغروب في موضع بين الجهتين.

ولما جاء الغروب و لم يعد أحد منهم زاد قلق الأمير بشير، والتفت إلى الكاشف فإذا هو غارق في الهواجس، ولما سأله فيما يفكر ؟ قال: " أرى يا سيدي أن الأمير أمين أخطأ بمسيره في عدد قليل من الرجال، لأن البدو القاطنين في هذه الصحراء قطاع طريق، والحكومة لم تستطع إخضاعهم حتى الآن، وكثيراً ما كانوا يهاجمون هذه البلاد وينهبونها رغم سطوة أفندينا العزيز وقوته التي سحق بها المماليك، فهؤلاء العرب ما زالوا من الخونة العاصين، وقد اعتاد المماليك قبل ملكهم أن يلتجئوا إليهم في حال فرارهم من وجه الحكومة، فلا نعلم ما تكون إرادة المولى".

وكان الكاشف يتكلم وعينا الأمير بشير تتقدان، وأصبح منظره كالأسد الكاسر ثم التفت إلى الكاشف قائلاً: "ما دامت الحال كما ذكرت فلا بد لي من الركوب مقتفياً أثر أولئك الرجال، فربما يكونون في شدة، على أني أعلم يقيناً أنهم أشداء لا خوف عليهم، وبينهم رجال من بني الدحداح هم فرسان مشهورون، ولكن يجب علي تتبع أثرهم إذا غربت الشمس و لم يعودوا".

وحال الكاشف أن يثني عزمه، فأصر وأمر أن يسرج له على الجواد وفيما هم على هذه الحال نظروا فرأوا في عرض الأفق عثيراً ظهر من تحته فرسان فاستبشروا، ولما اقترب الفرسان تبين أنهم قليلو العدد وليس فيهم الأمير أمين، فسألهم الأمير عنه فقالوا: "إن الأمير أميناً لم يشأ الرجوع معنا، وآلى على

نفسه ألا يرجع ما لم يقف على خبر الأمير غريب وقد دفع إلينا بهذا الكتاب".

فتناول الأمير الكتاب وفضه فإذا هو يقول فيه:

"سيدي وملاذي.. أقبل يديك. وبعد فلم أتأخر عن الرجوع إليكم إلا لأننا لم نهتد إلى غريب، وأنا أشعر بأني السبب في مجيئه إلى مصر، ولذلك آليت على نفسي ألا أرجع إلا بعد أن أجده، فألتمس منك المعذرة، فإني ما خالفت أمرك ولكني غير قادر على الرجوع إليكم دون أخي غريب، وقد أبقيت معي عشرين فارساً من رجالنا، والسلام عليكم..

ولدك المطيع أمين"

فالتفت الأمير إلى حامل الكتاب وقال له: "أين تركتم أميناً؟"

فقال: "إننا بعد أن تركناكم انقسمنا قسمين، فسار بعضنا شمالاً، وسار الباقون جنوباً، واتفقنا على أن نلتقي عند الغروب في موضع متوسط فيه ماء لنعلم عاقبة سعينا. فسرنا نحو الشمال وبحثنا طويلاً فلم نقف لغريب على أثر، فعرجنا نحو الملتقى، فالتقينا بالأمير أمين ورجاله، وعلمنا أنهم لم يكونوا أحسن حظاً منا، لكنهم رأوا أن يقصدوا قبيلة بني واصل في هذا المساء، وهي بالقرب من المكان الذي التقينا فيه، فربما كان الجواد قصد إلى هناك على عادة خيول العرب، وقال لنا الأمير أمين: "الأصوب أن تسيروا وتخبروا أبي بما كان ودفع إلينا هذا الكتاب فأتينا به إلى سعادتكم".

فاضطرب الأمير بشير عند سماع ذلك، وأطرق هنيهة ثم قال: "خير لنا أن نتكل على المولى القدير، وهو قادر على أن يرد ضائعينا ويحفظنا".

فسأله الكاشف: "أتريدون الرجوع إلى البلدة؟". فقال الأمير: "كيف نبيت نحن في القصور وأولادي في الصحراء تحت الخطر الشديد، ولعلنا نحتاج في منتصف الليل إلى أن نسير في أثرهم، فلنبق هنا لنرى ما يكون".

وبعد تناول العشاء اجتمع الأمير بشير وولده خليل في خيمة وهما شاعران

بأن الدنيا كلها ظلام لتغيب الأميرين أمين وغريب، وخشية الخطر عليهما. ثم أخذا يتبادلان الحديث ويتشاوران فيما ينبغي عمله لإنقاذ الأميرين الغائبين.

★★★

بقي الأمير أمين ومعه الفرسان العشرون مرابطين في الموضع الذي التقوا فيه بزملائهم قرب الماء، وكان الليل قد أظلم، فشاورهم في الأمر، فإذا هم متشجعون جميعاً إلا الخبير فبدا في خوف عظيم وتقدم إلى الأمير أمين قائلاً: "إننا الآن في خطر، وقلما جاء جماعة إلى هذا المكان ونجوا لأن عرب هذه الجهات فرع من عرب العبايدة المشهورين، والقبيلة التي تقيم بالقرب من هنا تعرف بقبيلة بني واصل، وهم على جانب عظيم من البأس، وسعادتك تعلم أن هؤلاء البدو لا يهابون أحداً، ويعيشون على النهب والسلب، وإني أضن بسيدي أن يلقي بنفسه في هذا الخطر العظيم".

فالتفت إليه الأمير أمين وقال: "إني عالم بكل هذه الأخطار، ولست أجهل شيئاً منها، وإن كنت تراني شاباً فقد أختبرت واختلطت بأمثال هؤلاء كثيراً في جهات الشام، وإنما أطلب إليك أن تتشجع وتصدقني الخدمة".

ثم التفت إلى رجاله وقال: "ماذا ترون؟".

فقالوا: "نحن عبيدك وأرواحنا رهن أمرك، وكلنا فداء الأمير غريب". فشكرهم ثم رتب مسيرهم ناصحاً لهم بأن يحرصوا على أن يكونوا قريبين من بعضهم بعضاً.

ثم ركبوا خيلهم وساروا في ظلام الليل، قاصدين قبيلة بني واصل، وقد شرعوا سلاحهم للدفاع، وجعلوا في مقدمتهم رجلاً يحمل مشعلاً متقداً استئناساً بالنور وإيهاماً لمن يراهم بأنهم من أهل المنطقة.

وبعد مسير نحو ساعتين، لاح لهم شبح كأنه فارس سائر على مقربة منهم نحو اليمين فأمر أحد رجاله أن يقتفي أثره ويسأله عن أمره، فمضى وعاد قائداً جواداً ليس عليه إلا السرج فلما رآه الخبير صاح بأعلى صوته قائلاً: "هذا جواد الكاشف، فأين الأمير غريب؟".

فوقف الجميع وتقدم الأمير أمين نحو الجواد وتأمله، فلما تحقق أنه جواد الكاشف اغرورقت عيناه بالدموع، فقال أحد فرسانه: "ربما كان الأمير غريب قد سقط عن الجواد في الطريق".

فقال الأمير أمين: "إن غريب لا يقع عن ظهر الجواد، فقد طالما ركب جياداً أشد جموحاً من هذا الجواد، في أرض أكثر وعورة".

فقال فارس آخر هو أكثر الجميع اختباراً: "يا سيدي الأمير ورأس أبي سعدى (يريد الأمير بشيراً) إن غريباً لم يسقط عن ظهر الجواد رغم إرادته، ومما يؤيد ذلك أن السرج ما يزال كما هو والركاب لم يتزحزح من مكانه، فلو فرضنا سقوطه رغم إرادته لما أمكنه إخراج رجله من الركاب بل لبقي معلقاً به لأن هذا الركاب يمسك الحذاء. فالحقيقة لا يعلمها إلا الله. وأما مسيرنا إلى قبيلة بني واصل فلا داعي له بعد أن تحققنا أن الجواد لم يصل إلى هناك، وأرى أن نعود من طريق غير الذي جئنا منه على أن نسير سيراً بطيئاً ونكثر من المشاعل بحيث نجعل بين كل اثنين منا مشعلاً ثم نقص أثر جواد الكاشف".

فاستحسن الجميع هذا الرأي وساروا على هذا الترتيب، وكل منهم يحدق فيما حوله على الأرض الرملية لعله يرى شبحاً أو أثراً يستدل منه على شيء، وهم جميعاً صامتون والطبيعة هادئة.

وبعد مسير ثلاث ساعات أجفلت خيولهم بغتة وأخذت تصهل، كأنها شاهدت أمراً مخيفاً، فصاح الأمير أمين قائلاً: "قفوا لنرى ما هناك".

وبعد هنيهة قال أحدهم: "هذه جثة ملقاة على الأرض". فلما سمع الأمير والباقون ذلك تقدموا جميعاً إلى موضع الجثة، فإذا بها مضرجة بالدماء وسمعوا منها أنيناً خفيفاً فخفقت قلوبهم واقتربوا منها بالمشاعل، وما كاد الأمير أمين يتأملها حتى قال: "إنها جثة رجل أسمر متوسط العمر عليه ثياب الأعراب". ثم فحصوا الجثة وقال: "لا أمل في حياته فهو مضروب بسيف حز

عنقه وقد كسرت الضربة العظم".

فقال الخبير : " هذا رجل من قبيلة بني واصل، وأنا أذكر أنه من كبار قطاع الطرق فيهم فلنسر في طريقنا".

فتنهد الأمير أمين وقال: "لا أقدر أن أتركه ملقى على هذه الحال، فإنه يمثل لي منظراً لا أرانيه الله. وها هو ذا قد مات فلنحفر له حفرة نواريه فيها فذلك خيرٌ من أن تأكله الوحوش".

ثم أمر بعض رجاله بإنجاز هذه المهمة، فسارعوا إلى تنفيذ أمره. بينما وقف هو يتأمل جثة الأعرابي القتيل ويتوسل إلى الله أن يقي غريباً مثل هذا المصير وقد كاد قلبه ينفطر.

وبعد قليل كانت الحفرة قد أعدت، فجاء الفرسان ليحملوا الجثة، وما كادوا يفعلون حتى شاهدوا في حجر الميت شيئاً غير ثيابه، فتفرسوا في ذلك الشيء على ضوء المشاعل فإذا هو كوفية من الحرير وعليها العقال، فصاح الأمير أمين قائلاً: "هذه كوفية غريب، هيا فتشوا هذا الميت بدقة لعلنا نعثر معه علـــى شيء آخر".

فجاء أحدهم وفتش الجثة فوجد عقداً من الذهب أعطاه للأمير فقال: "وهذا لغريب أيضاً". ولما لم يروا شيئاً غير ذلك واروا الجثة، وأخذوا يفكرون في غريب وقد أوجسوا خيفة من أن يكون قد أصيب بسوء، وكان الأمير أمين أكثرهم جزعاً إذا اشتم رائحة أخيه من ملابسه وعقده، فأمر رجاله بإعادة البحث عنه في تلك المنطقة على ضوء المشاعل، وجلس هو على الأرض وعيناه تفيضان بالدمع خوفاً عليه، إذا خيل إليه أنه سيراه مضرجاً بدمائه مثل ذلك الأعرابي، وتصور حال والدة غريب حين يبلغها نعيه، فاشتد جزعه وتلاعبت به هواجسه تلاعب الريح باللهيب، وشعر كأنما صب عليه ماء حار تارةً وماءً باردة أخرى. ولا سيما أنه كان السبب في مجيء غريب إلى تلك الأرض، فهب من جلسته مرتعداً وقد اتقدت في قلبه الحمية والشهامة، ثم آنس عن بعد ضوءاً خفيفاً فركب جواده وسار بغير

مشعال قاصداً جهة ذلك النور وقد اعتزم أن يتحرى الأمر بنفسه ولم يعد يخشى بأساً ولا يقدر عاقبة.

وبعد قليل، لاح له عن بعد شبح فارس واقف وسمع صوتاً يناديه: "ارجع من عندك يا كلب العرب وإلا أعدمناك".

فصاح الأمير أمين قائلاً: "من أنتم يا قوم، فإننا غرباء وقد جئنا لأن لنا عندكم حاجة".

فقاطعه صاحب ذلك الصوت قائلاً: "تكلم من موضعك ولا تقترب منا".

فقال الأمير: "قلت لك أننا لسنا من أهل هذه المنطقة وإنما نحن نبحث عن زميل لنا ضل فيها منذ حين".

وما أتم كلامه حتى كان رجاله قد لحقوا به على خيولهم، فأوقفهم ليتم حديثه مع ذلك الفارس، فإذا بهذا يدنو منهم، فلما اقترب من المشاعل تفرس الأمير فيه على ضوئها فرآه ملثماً بكوفية بيضاء وقد التف ببرنس أبيض، وتحته جواد أزرق. وبعد أن تفرس فيهم قليلاً صاح قائلاً: "مرحباً بكم، لقد ظفرتم بضالتكم".

فلما سمع الأمير أمين ذلك خفق قلبه وقال: "أين هو؟.. أين أخي غريب؟".

فقال الفارس: "هو عندي سليم معافى فكن مطمئناً".

ثم سار بهم مسافة ميل حتى وصل إلى مصدر ذلك الضوء الذي لمحوه فإذا هو مضرب منصوب، ثم قال لهم: "لا تدخلوا جميعكم معاً".

فقال الأمير: "أنا أدخل وحدي لأرى أخي".

فأدخله إلى خيمة فيها مصباح، وقد تمدد على وسادة بها رجل لا يبدو من وجهه شيء، فقال أمين بلهفة أين غريب؟".

فقال له الفارس: "هو هذا النائم هنا". فتقدم أمين وتأمل وجهه فإذا هو معصوب الرأس مغمض العينين، فهم بمناداته ولكن الفارس أمسكه وقال: "لا توقظه فإنه محتاج للراحة".

فقال: "ما باله معصوب الرأس؟". قال: "إنه مصاب بجرح خفيف، وقد ضمدناه وهو سليم بإذن الله". فسكن روعه واستفهم من ذلك الفارس عن حقيقة الأمر، فأخذ الفارس بيده وهو يشير إليه بالصمت، حتى إذا خرجا من الخيمة، أشار عليه الفارس بالجلوس بجانبه أمامها وقال له: "إني خرجت في أصيل اليوم للصيد والقنص، وفيما أنا عائد إلى هنا سمعت قعقة سيوف، ثم رأيت هذا الفتى بين يدي أربعة من العربان وقد ضربه أحدهم بعصا على رأسه وحاول أن يجهز عليه، فصحت به صيحة قوية وضربته بالسيف على عنقه فسقط على الأرض وفر رفقاؤه، وكان بجانب الفتى جواد ما لبث قليلاً حتى انطلق ضارباً في عرض الصحراء. فحملت الفتى الجريح على جوادي وجئت به إلى خيمتي فغسلت جراحه باللبن وضمدتها وأعطيته قليلاً من اللبن فشرب وهو بين اليقظة والغيبوبة وفرشت له وسادة لينام. وبعد أن أخذته سنة النوم تركته وكان قد مضى هزيع من الليل ثم تركت الخيمة وأوصيت خادمي أن يعتني به وخرجت أراقب حركات اللصوص حذراً من أن يأتوا إلينا بعدهم ورجلهم ولم يمض قليل حتى أتيتم ورأيتمونا على هذه الحال".

وكان الأمير في أثناء سماعه تلك القصة يتفرس في وجه محدثه ولكنه لم يستطع تبين ملامحه لأنه كان ملثماً فلم ير إلا عينيه، على أنه استدل من صوته على أنه ليس بدوياً، لأن لسانه قريب من اللسان المصري.

فلما أتم كلامه تقدم إليه الأمير أمين وعانقه وهتف قائلاً: "لقد غمرتنا بلطفك وإحسانك، وأوليتنا جميلاً لا ننساه مدى العمر، فالله يجزيك عنا خير جزاء، فهل لي أن أطمع في أن تجيبني عن سؤال بسيط؟".

قال: "سل ما بدا لك". فقال: "هل لي أن أعلم اسم سيادتكم وسبب مجيئكم إلى هذا المكان، إذ يلوح لي أن السيد ليس من سكان البادية".

فتنهد الرجل وقال: "ليس هذا وقت الإجابة عن سؤالك، فدعنا منه الآن وتعال أنت ورجالك للاستراحة هنيهة فإنكم أجهدتم أنفسكم في البحث عن ضالتكم".

قال: "نعم إننا نجول في الصحراء منذ ظهر اليوم".

فقال: "هلم إذن إلى الطعام والاستراحة".

فنهض الأمير ولكنه لم يستطع المرور أمام خيمة غريب دون أن يدخل إليها ويستطلع حاله، فرآه ما زال راقداً وقد كلل العرق جبينه وبجانبه خادم يلاحظه. فأراد أن يقبله فمنعه الخادم خوفاً من أن يوقظه. ثم نادى الأمير بعض رجاله وأمرهم أن يسيروا حالاً ليزفوا إلى أبيه بشرى وجود غريب، وأرسل الفارس معهم بعض الخدم ليدلوهم على الطريق، فساروا بعد أن أوصاهم الأمير أمين أن يبلغوا أباه أنه سيكون وغريباً عنده غداً إن شاء الله.

ولاحظ الأمير أمين أن الفارس مضيفهم لم يجلس معهم على المائدة ولكنه وقف يخدم ضيوفه، مع أن الخدم عنده كثيرون، فأدرك أنه عربي لأن هذه عادة العرب في ولائمهم.

أما المائدة فكانت طبقاً كبيراً من النحاس عليه ذبيحة من الضأن وصبرة من الأرز فوقها السمن الكثير. وكان الأمير أمين ورجاله يعرفون عوائد البدو فتناول الأمير قطعةً من رأس الذبيحة وأعطاها لصاحب الضيافة، فعرف هذا أن ضيفه ممن خالطوا البدو وعاشروهم. وكان جلوسهم جثواً على ركبة واحدة يتناولون الطعام بأصابعهم من الأرز واللحم ويجعلون اللقمة على هيئة الكرة ثم يدفعونها بالإبهام إلى أفواههم.

ولما فرغوا من الطعام شرع الخدم في عمل القهوة المشهورة عند البدو، فعمدوا إلى أجران من الخشب وجعلوا يدقون البن بمدقات يسمع لها صوت ألذ إلى سمعهم من نغم الموسيقى، فإن لهم دقاً في البن المحمص بالأجران المصنوعة من خشب البطم بأسلوب يطرب الأسماع ويشنف الآذان. وبعد دقها غلاها الخدم في إناء وضعوه على النار، ثم جاءوا بها إلى صاحب البيت فسكب الفنجان الأول لنفسه، ثم سكب لضيوفه مبتدئاً بالأمير أمين حتى انتهى إلى أقل رجاله. وكان الأمير أمين ورجاله قد تعودوا شرب القهوة

البدو المتقنة لما يجعلونه فيها من الأفاويه كالبهار وكبش القرنفل وحب الهال وغيرها، فانشرح كثيراً ولا سيما بعد أن سكن روعه بلقاء غريب.

وبعد أن تناولوا القهوة طلبوا الرقاد فساروا إلى أماكن أعدت لهم، فلم يرض الأمير أمين أن ينام إلا في غرفة غريب ولكنه تأملها هذه المرة جيداً فإذا هي مصنوعة من الشعر الأسود كسائر خيام البدو ولكنه لم يرها مقسومة قسمين، كما جاءت عادتهم بأن يجعلوا الخيمة قسمين قسماً للنساء وقسماً للرجال، فظن أن تلك الخيمة جعلت كذلك عمداً، فاضطجع في موضعه.

ولما أفاق غريب في ضحى اليوم التالي رأى أخاه أميناً عند رأسه فكاد يذهل من الدهشة والفرح، فقبله أمين وابتدره بالكلام مطيباً خاطره، فقال غريب: "أين اللصوص المجرمون؟" قال: "قد هربوا بعد أن لقي رئيسهم مصرعه، فكن مطمئن البال ولا تجزع، فإني أنا أخوك أمين".

فقال: "أمين؟ أمين؟ أين أبي وأين ذلك الجواد؟".

فأخذ أمين يسكن روعه ويخفف عنه حتى صحا من غيبوبته تماماً وأدرك حقيقة ما حدث فحمد الله، وقص على أمين ما وقع له فقال: "بعد أن ركبت ذلك الجواد، جمح بي في عرض البيداء، ولم أقدر أن أكبح جماحه فظل يعدو بي أكثر من ساعتين. وفيما أنا في ذلك رأيت بعض الناس عن بعد فجعلت أناديهم وأستغيث بهم، فجاءوا إلي وأمسكوا بالجواد وأنزلوني عنه، ثم طلبوا مني أن أعطيهم كل ما معي إن أردت النجاة لنفسي، فلما أبيت عليهم ذلك، غافلني أحدهم وضربني من الخلف على رأسي، فسقطت مغمى علي، ولم أشعر بنفسي بعد ذلك إلا وأنا طريح الفراش في هذه الخيمة، وكأني شربت لبناً، وها أنذا أراك بجانبي".

فتقدم إليه أمين وقبله وحدثه بقصته من أولها إلى آخرها، ثم قال: "إن الفضل الأكبر في نجاتك هو لهذا الشهم الغيور (وأشار إلى صاحب الخيمة) فنطلب إلى الله أن يقدرنا على مكافأته".

وبعد أن أتما حديثهما تقدم صاحب الخيمة وقال للأمير أمين: "هل لسيدي

أن يخبرني عن حقيقة أمره وأمر هذا الفتى؟"

فقال: "إننا من أولاد الأمير بشير الشهابي حاكم جبل لبنان، وقد جئنا إلى مصر منذ وقت قصير ونزلنا بأمر العزيز ببلدة الفشن وراء بني سويف ريثما يأتي من الإسكندرية لمقابلة أبي. وقد خرجنا أمس لركوب الخيل فجمح جواد أخي هذا وانطلق به في عرض الفلاة وكان من أمره ما علمت، ولا شك أن أبي يسعده أن يراك، فهل ترافقنا إليه؟".

فسكت قليلاً ثم قال: "لا يمكنني ذلك الآن لأسباب كثيرة لا أستطيع ذكرها، ولعل الأصوب أن تمكثوا عندنا بضعة أيام ريثما يبرأ جرح الأمير غريب ثم تسيرون في حراسة الله".

فقال أمين: "ذلك لا يمكننا، فأبونا في انتظارنا الآن".

قال: "نرسل إليه من يخبره بذلك، وإذا شاء المجيء فمرحباً به وأهلاً وسهلاً".

قال: "ما أظنه يجيء، ولا بد لنا من الذهاب إليه آخر هذا النهار إذ تكون الشمس قد مالت إلى الغروب وخفت حرارتها، فإن لم تستطع أن تصحبنا فأخبرنا باسمك لنطلع عليه أبانا".

قال: "حبذا ذلك، ولكني أرى تأجيله حتى تسمح لي الأقدار بلقاء الأمير بشير، ولست بطامع في المكافأة فأنا لم أفعل ما فعلت إلا لأرضي نفسي، ولم أكن أعلم شيئاً عن الأمير غريب".

ثم خرج الأميران من الخيمة، وتأملا فيما يحيط بها، فإذا هي تتوسط خياماً عدة، يحدق بها سهل رملي لا يدرك الطرف آخره، فازداد تعجباً من أمر ذلك الرجل وما هو فيه من التستر، وأزمعا أن يخبرا أباهما عنه.

★★★

بقي الأمير بشير في خيمته يتحدث مع الأمير خليل ابنه في أمر غريب وأمين، ولم يمكنهما الرقاد طول الليل لكثرة الهواجس.

وخطر ببال الأمير بشير أن في الأمر مكيدة مدبرة، فاعتزم بحث هذا الأمر، وما طلع الفجر حتى أرسل في طلب الكاشف، فلما جاءه، ابتدره قائلاً: هل تلقيت خبراً في شأن الجواد الجامح؟". قال: "لا".

فقال الأمير: "أريد أن تقبض على الذين باعوك ذلك الجواد".

قال: "سمعاً وطاعةً". ثم بعث بعض الشرطة فجاءوا بهم، وكان الأمير بشير جالساً كأنه طود راسخ وقد ظهرت على وجهه ملامح الغضب، فنظر إلى الكاشف وقال له: "إني لا أطلب حقي إلا منك، وعليك أن تستقصي حقيقة الأمر من هؤلاء الذين باعوك الجواد".

فوقع الرعب في قلب الكاشف، وأمر بأن يجلد العربان بالسوط ليعترفوا بالحقيقة، وسرعان ما نفذ الجنود أمره، وظلوا يجلدونهم بالسياط حتى سالت الدماء من أجسامهم، ولكنهم لم يلفظوا ببنت شفة، مما أثار دهشة جميع الحاضرين.

وهنا وقف الأمير بشير، وأشار إلى الكاشف أن يحلهم ففعل، ثم صاح بهم بصوته الجهوري المرعب قائلاً: "تقدموا إلى هنا". ثم تفرس فيهم وهددهم بالقتل قائلاً: "أنتم المسؤولون عن ولدي، ولن يفيدكم الإنكار لأن أمركم لا يمكن أن يظل خافياً علي، وقد أخبرني واحد منكم بحقيقة الأمر، وعلمت أنكم لم تفعلوا ما فعلتموه باختياركم، لكن إذا أصررتم على الكتمان فلا تلوموا إلا أنفسكم".

فصرخوا قائلين: "وحياة رأس أفندينا نحن مظلومون".

فقال الأمير: "أنا أعلم أنكم مظلومون فأخبرونا بحقيقة الأمر".

فتقدم واحدٌ منهم وترامى على قدمي الأمير وقبلهما وهو يرتجف خوفاً ورعباً وقال: "وحياة رأس أفندينا نحن عبيد مأمورون لم نفعل شيئاً من تلقاء أنفسنا، ولكن أمير قبيلة بني واصل وأرسلنا لنبيع ذلك الجواد المكاشف بأي ثمن، ولا نعلم غرضه".

فقال الأمير: "كفى هذا الاعتراف". وأمر بحبس العربان حتى يتم التحقيق

ثم سأل الكاشف: "هل بينك وبين ذلك الأمير عداوة؟". فقال الكاشف: "إن بعض رجالي قبضوا على لصوص من قبيلته كانوا يقطعون الطريق".

فتحقق الأمير أن في الأمر مكيدة، والتفت إلى ولده خليل وقال: "ماذا تنتظر بعد ذلك؟ أنترك أخويك في خطر ونبقى جالسين هنا؟".

ثم هم بجواده فاعتلى متنه، وكذلك فعل الأمير خليل والكاشف وكل الحاضرين. وقال الكاشف: "إن الحكومة هي المسؤولة عن هذا الأمر، فليبق الأمير هنا، وعلي أم أمضي مع رجالي لإنجاز هذه المهمة".

وفيما هم في ذلك ابصروا غباراً ما لبث قليلاً حتى انقشع عن بضعة فرسان عرفوا أنهم من رجال الأمير، فتوجه الأمير لملاقاتهم وإذا هم قادمون من عند أمين وغريب، وبشروه بما كان فاطمأن قلبه ولكنه لم يزل متشوقاً للوقوف على جلية الأمر.

وفي المساء، وصل الأميران أمين وغريب ومن معهما من الرجال بعد الغروب بحوالي ساعتين، فاستقبلهم الأمير بشير وقبل غريباً، وعاد الجميع إلى البر الثاني وهم يحمدون الله. وفي أثناء الطريق حدث الأمير أمين أباه بالخبر من أوله إلى آخره، فلما سمع حديث ذلك الرجل الذي نجى غريباً من الموت قال: "ولماذا لم تأت به معك لكي نكافئه على صنعه؟".

فقال أمين: "ألححت عليه في ذلك كثيراً، لكنه اعتذر، وقد ظهر لي من كلامه وحركاته أنه ليس بدوياً، والأغلب أنه من أعيان هذه البلاد وقد جاء أمراً استجوب غضب عزيز مصر عليه، ولولا ذلك ما تمنع عن المجيء معي إلى هنا. ومما يقوي هذا الظن أنه لم يرفع اللثام عن وجهه مطلقاً أثناء اجتماعي به أمس حتى ساعة وداعنا له اليوم، وقد تركته عند العصر وأنا أفكر في أمره ولا أزال أذكر قوله لي ساعة الوداع: "بلغ تحياتي إلى سيادة والدكم، وأرجو أن يكون لي شرف مقابلته في ظروف ملائمة. على أن مجيئه إلى هنا لا يخلو من المشقة عليه لبعد المسافة، وكان علي أن أسعى إليه لكن هذا ليس في

وسعي الآن والأمر لله من قبل ومن بعد".

— ٥ —

أمين بك

قال الأمير بشير لابنه أمين: "يوح لي أن الرجل في ضيق وحاجة إلى من ينفس عنه كربه، وما دام لا يستطيع المجيء إلى هنا حذر أرصاد الحكومة فيجب علي قياماً بواجب الإنسانية والشهامة أن أسير إليه بنفسي مهما يكلفني ذلك من المشقة، ويكفي أنه نجى غريباً بعد أن أشرف على الموت، ففي صباح غداً إن شاء الله نركب إليه ومعنا بعض الرجال الذين عرفوا الطريق".

وكان الأمير خليل يكلم غريباً في أثناء ذلك ويلاطفه وهو يستمع لقصته حتى وصل الجميع إلى المنزل، وكان الخدم قد أعدوا الطعام فجلسوا لتناوله. وبعد الاستراحة قليلاً مضى كل منهم إلى فراشه طلباً للرقاد لأنهم لم يكونوا ذاقوا النوم في الليلة الغابرة.

وفي الصباح التالي اجتمع الجميع في غرفة غريب وفحصوا جراحه فإذا هي قد قاربت الشفاء، فأوصوه بألا يخرج من المنزل يومين خوفاً عليه من تأثير الحرارة، وكان ذلك بمشورة طبيب الأمير بشير الذي كان برفقته.

ثم ركـــب الأمير بشير ومعه ولده أمين وبعض الرجال وساروا قاصدين الفارس، بعد أن أوصى الطبيب بأن يلازم غريباً، وقد آلى على نفسه أن يبذل ما في وسعه لإنقاذ ذلك الفارس من الضيق المستحوذ عليه.

وبعد بضع ساعات وصلوا إلى الخيام، وكان صاحبها قد علم بقدومهم من بعض رجاله فخرج لاستقبال أمير لبنان، وقد راعه ما وجده من عظم هيبته. فترجل الجميع، ومضوا إلى الخيمة الكبرى حيث جلسوا وجيء لهم بالقهوة والتبغ، وأخذ المضيف يرحب بضيوفه ويوجه أكبر عنايته إلى الأمير بشير، كل ذلك وهو ملثم الوجه.

ثم مد السماط كعادة العرب، وجلس الضيوف لتناول الطعام فقال صاحب الضيافة: "أخشى أن تكونوا لم تألفوا الطعام على الطريقة البدوية".

فقال الأمير بشير: "نحن جميعاً قد ألفنا هذه العادة".

وبعد الطعام أديرت عليهم القهوة ثانيةً. كل ذلك والأمير بشير يتأمل في حركات ذلك الرجل ويعجب لأمره، ولم يكد ينتهي من الطعام حتى طلب أن يخلو إليه، وقال له: "ألا ترفع هـذا اللثـام عن وجهك، إذ لم يبق من داعٍ إلى الحجاب بيني وبينك، لأنك أوليتني جميلاً لا أستطيع مكافأتك عليه. واعلَم أن الأمير بشيراً سيكون رهين إشارتك في كل ما تحتاج إليه فارفع هذا اللثام عن وجهك وحدثني".

فوقف الرجل بين يدي الأمير ورفع اللثام عن وجهه، فبان تحته وجه رجل بين الأربعين والخمسين من العمر، ذي عينين واسعتين سوداوين، وجبين عريض مرتفع، وأنف أقنى، وشارب ولحية وقد وخطهما الشيب في غير أوانه، فتأمله الأمير بشير فإذا هو ليس من الجنس المصري الأصلي ولا العربي. ثم ابتدره الرجل بالكلام قائلاً: "انظر يا سيدي إلى هذا الشعر الذي شاب قبل أوانه، وما ذلك إلا من صنع قوم كنا لهم أشد الأنصار وقت العسر واليسر".

فقاطعه الأمير قائلاً: "اجلس يا أخي واشرح لي قصتك بإسهاب".

فقال الرجل: "أتعدني أنك إذا سمعت في قصتي ما يثبت كوني مذنباً أن تترفق بي؟".

قال: "نعم أعدك بأن أكون عوناً لك، فقل ما عندك".

فأخذ الرجل يقص حكايته وقال: "إني أيها الأمير من الأمراء المماليك الذين سمعتم بمذبحتهم في قلعة القاهرة منذ إحدى عشرة سنة، وقد كنت ممن دعوا إلى القلعة في ذلك اليوم المشؤوم وقدر الله لي أن نجوت بنفسي لتأخري عن وقت الدعوة".

فقاطعه الأمير بشير قائلاً: "لعلك أمين بك؟".

قال: "نعم إني هو يا سيدي، وقد مضى كل ذلك الوقت بعد فراري من مخالب الموت وأنا أنتظر عبثاً أن تحين لي فرصة لرجوعي إلى القاهرة لمشاهدة

أهلي، فقد تركت هناك امرأتي وولدي، وعلمت أن عزيز مصر أباح لجنده التزوج بنساء المماليك فلا أعلم ما كان من أمر أسرتي، فقد أنفذت إلى هناك من سألوا عنها لكنهم لم يأتوا بفائدة، فمن قائل أنها في مصر، وقائل أنها هاجرت إلى غيرها من البلاد. وقد أصبحت في قلق من جراء ذلك، لأني لا أعلم هل زوجتي على قيد الحياة، أو هلكت علىً أثر ولادتها لأنها كانت حاملاً، ولا أعلم ما جرى لولدي، ثم إني منقطع في هذا البر لا أستطيع السكنى في المدن خوفاً من عيون الحكومة لأنها جعلت دماءنا هدراً فلكل من لقينا أن يقتلنا ولا إثم عليه ولا حرج".

فقال له الأمير: "طب نفساً فإني سأقابل العزيز عما قريب، ولا بد من أن أذكرك أمامه وأطلب لك العفو منه، وهذا أقل ما يجب لك علينا، ولا بد من أن تنال مرامك بإذن الله".

فقال أمين بك: "ليس هذا كل حديثي أيها الأمير فإن عندي قصة أشد تأثيراً في نفسي وهي سبب قلقي واضطرابي فأسألك الإصغاء إليها وألا تؤاخذني بما كان مني".

قال: "قل ولا تخف شيئاً".

★★★

تنهد أمين بك وقال: "أعترف لك أيها الأمير أني جلبت الشقاء لزوجتي المسكينة هذه، فإنها ليست من المماليك مثلي، وليست من بلادي وإنما ساقتها الأقدار إلي اتفاقاً".

فقال الأمير: "ومن أي بلد هي؟".

فخنقته العبرات وسكت. فابتدره الأمير وقال له: "قلت لك: لا تخف شيئاً فصرح بكل شيء". فوقف البيك ثم جثا بين قدمي الأمير وقبل ركبته قائلاً: "إنها من لبنان أيها الأمير الجليل".

فاضطرب الأمير بشير، وقاطعه قائلاً: "كيف يمكن أن يكون ذلك؟"

قال: "إنني لما كنت شاباً توجهت مرةً مع عمي أحد أمراء الألفية الذين

تولوا مشيخة هذا البلد زمناً طويلاً إلى بلاد الشام، وكان ذلك على أثر قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر بقيادة نابليون بونابرت سنة ١٢٣١هـ (١٧٩٨ م). فساقتنا المقادير إلى جبل لبنان ولم يعلم بنا أحد، وكنت سعادتك أميراً على الجبل إذ ذاك، ولكن الجزار والي عكا كان قد غضب عليك واتهمك بالاشتراك مع الفرنسيين لكي يولي أولاد الأمير يوسف مكانك. وبلغني أنه ولاهم ولكنه لم يرسلهم لتسلم الإمارة لاشتغاله بالاستعداد لصد الحملة الفرنسية عن سوريا. وكنا نعتقد إذا ذاك أنكم من حزب الفرنسيين، ولهذا رسخ في نفوسنا حب الانتقام منكم، غير أننا لم نر لذلك سبيلاً فلبثنا ننتظر ما يكون. واتفق إن كنا ذات يوم في إحدى قرى لبنان المجاورة لدير القمر، وكان أهل البلاد في شغل شاغل بالخلاف بين أحزابهم، فعزمنا على العودة إلى مصر، إذ علمنا بأن الفرنسيين كاد أمرهم يفشل بسبب المنشورات التي أرسلها الباب العالي ضدهم، وجاءت الرسائل إلى عمي لكي يرجع إلى مصر وينضم إلى رفقائه المماليك. ففي ليلة تأهبنا للرحيل هيأنا الخيول وركبنا، وفيما نحن خارج تلك القرية شاهدنا عن بعد شبحاً بين الكروم، وكنا قد أرسلنا أحد رجالنا ليأتي لنا بشيء من العنب ويلحق بنا في الطريق، فإذا به عاد إلينا ومعه فتاة في الرابعة عشرة من عمرها كأنها من حور الجنان، فتأملتها وذكرت أنني شاهدتها قبلاً، ومالت عواطفي إليها، لكني لم أجرؤ على مخاطبتها لعلمي أنها من بنات الأمراء، فلما سألت الرجل عنها ذكر أنه وجدها بين الكروم وقد أمسى عليها المساء، وطلبت منه أن يوصلها إلى بيتها القريب من ذلك الكرم، لكنه جاء بها إلينا. ثم همس في أذني قائلاً: (إنها تصلح أن تكون زوجة لك). فحدثتني نفسي أن آخذها معي إلى مصر وأتزوج بها، ولما كلمتها في هذا الشأن لم تظهر معارضة، ولعلها خافت منا، غير أنها كانت تبكي. فقلت لها: (لا بأس عليك). وصرت أطيب خاطرها وأنظر إلى عمي لأرى رأيه في ذلك الأمر، فرأيته قد استحسن أخذ الفتاة

معنا. فأغواني الشيطان وأغريت الفتاة وسرنا بها في ظلام الليل ونحن نجد المسير حتى خرجنا من حدود لبنان ووصلنا إلى مدينة صيدا، وهناك عقدت قراني بها. وبعد بضعة أيام واصلنا رحلتنا".

فقاطعه الأمير قائلاً: "هل هي الأميرة سلمى؟".

قال: "نعم أيها الأمير".

★★★

اصفر وجه الأمير رغم إرادته وقال: "إني أذكر أمر فقد هذه الفتاة، وكنت قد أبحت دم الجاني عليها، ولكن مضى ما مضى وأنت الآن من أصهارنا، وعسى أن تكون تلك الأميرة على قيد الحياة"

فبكى أمين بك وقال: "لا يعلم ذلك إلا الله، وإني أيها الأمير ما زلت أعض بنان الندم ويؤنبني ضميري لما أصاب تلك المسكينة بسببي، وذلك أننا بعد أن مكثنا في صيدا عدة أيام، قيل لنا أن الفرنسيين جاءوا بجيوشهم لفتح سوريا ولكنهم ما يتجاوزا عكا بل رجعوا عنها بعد أن حاصروها خمسين يوماً فامتنعت عليهم بمساعدة الأسطول الإنجليزي".

وقال لي عمي: (ما دام الفرنسيون قد عادوا إلى مصر فلا فائدة لنا من العودة إليها، وخير لنا أن نعود إلى حيث كنا). ولكني رأيت أن رجوعنا إلى لبنان فيه خطر علينا بسبب أخذنا سلمى. ثم أخذت وبعض رجال عمي نحرضه على مواصلة السير إلى مصر لأن أهلها لن يقابلوا الفرنسيين بمثل ما قابلهم به أهل سوريا بعد أن ذبح الفرنسيون في يافا أربعة آلاف رجل من الآرناءوط والمغاربة كانوا قد سلموا سلاحهم، فأهل مصر لا ينخدعون بزعم الفرنسيين أنهم مسلمون مثلهم، ولا سيما أنهم يروهم يشربون الخمر ولا يسترون نساءهم، وقد أرسل جلالة السلطان إلى المصريين محرضاً إياهم على إخراج الفرنسيين من بلادهم. وبقيت ألح على عمي بمثل هذه الأقوال، قاصداً البعد من لبنان خوفاً من الوقوع في شر أعمالي، إلى أن أقنعته بالعودة إلى مصر، على أن نستقر قرب حدودها ونترقب ما يجري فيها. وبعد

مفاوضة طويلة قر القرار على التوجه إلى حدود مصر، ففرحت بذلك كما فرحت به الأميرة سلمى، ولم يكن لي بعد ذلك منهم إلا العمل على راحتها وإسعادها. ولهذا كنت أخشى أن تتوطد أقدام الفرنسيين في مصر ولا نعود إليها فأكون قد جلبت الشقاء لنفسي ولها، وما زلنا سائرين حتى نزلنا في موضع بالقرب من العريش، وبعثنا جواسيسنا لاستطلاع أخبار الفرنسيين فعلمنا منهم أن بونابرت غادرها سراً إلى بلاده في أواخر سنة ١٧٩٩م. فاستبشرنا بذلك جميعاً. ثم أخبرني عمي أن المماليك وأهل مصر يعملون لإخراج الفرنسيين، ولكنهم لم يقدروا على ذلك، فبقي هؤلاء أيها الأمير في مصر إلى أن جاءت الحملة العثمانية وأخرجتهم سنة ١٨٠١م من مصر بمساعدة حملة إنجليزية، فابتهجنا وهممنا بالتوجه إلى القاهرة.

ثم علمنا أن التربص في مكاننا خير لنا، لأن الإنجليز تعهدوا بأن يعيدوا مصر إلى الباب العالي، وقد سلموا ولايتها إلى والٍ عثمانيٍ معه أوامر سرية بقتل جميع المماليك وإبادتهم. ولم أذكر لسلمى شيئاً من ذلك منعاً لاضطرابها.

وليس من غرضي الآن أن أشرح لسعادتكم تاريخ الحوادث المصرية إذ ذاك، وإنما المقصود إظهار ما يلحقني من التبعة إذا أغفلت أمر تلك الأميرة فأقول بالاختصار: أنه لما جاء محمد علي باشا الوالي الحالي مع الجنود العثمانيين الذين جاءوا لإخراج الفرنسيين وقع بينهم نفور وبين الباب العالي العثمانيٍ فطلب إلى أمرائنا أن يساعدوه في مقاومة ذلك الوالي وأن يكونوا معه يداً واحدة، فساعدناه جهدنا، حتى إذا صارت الولاية إليه تنحى عنا ولم يسمح لنا بالاستيلاء على حقوقنا فاضطررنا إلى مقاومته، وكان عمي إذا ذاك في جهات الصعيد وكانت سلمى معه. فاتصل من هناك بخورشيد باشا الوالي الذي كان قبل محمد علي واتفق معه على مساعدته في خلع محمد علي باشا على أن يعيد الأحكام إليه، ثم فاوض في ذلك أيضاً قنصل إنكلترا وتعهد له بأن يسلم البلاد لها إن هي ساعدته. ولكننا بعد أن كدنا ندرك الوطر

ذهبت مساعينا عبثاً، إذ جاءت الأوامر بتثبيت محمد علي والعفو عن المماليك، فقلنا: (ما لا يدرك كله لا يترك جله). ورحلنا من الصعيد إلى جهـــات مختـــلفة، فكانت إقامتي بالقاهرة حيث حسبت نفسي سعيداً لأني صرت قـــادراً على إرضاء سلمى، فأسكنتها قصراً كبيراً وأتيت لها بالخدم والجواري، وظننت الدهر قد صفا لنا بعد أن تنازلنا عن كل حقوقنا في الحكم، وما لبثنا قليلاً حتى دعانا محمد علي باشا إلى قصره في القلعة لشهود الاحتفال بخروج ابنه طوسون لمحاربة الوهابيين. وقد لبى هذه الدعوة الرسمية جميع المماليك. ولما أردت الخروج من البيت قاصداً إلى القلعة، بعد أن أمرت الخادم بأن يهيء لي الجواد، نادتني سلمى وقالت لي: (لا تستعجل فإني أشعر باضطراب في جسمي هذا النهار، وربما أضع حملي اليوم، ثم إني خائفة لأني رأيت حلماً مزعجاً). فقلت لها: (الأحلام أوهام لا يعبأ لها). ثم جلست بجانبها وتجاذبنا أطراف الحديث قليلاً وأنا أتأمل جمال وجهها ولطفها، ثم انتبهت وقد كاد يفوتني الوقت فركبت جوادي وقصدت القلعة، فلما وصلت إلى باب العزب رأيت الموكب قادماً نحوه يريد الخروج منه، وآثرت الانتظار هناك، ريثما يخرج فأرافقه، فوقفت بجوادي على تل أمام الباب، لكنهم سرعان ما أغلقوه بغتة، واعقب هذا إطلاق الرصاص داخل القلعة، فعلمت أنها مكيدة لقتلنا، وحملني حب النجاة على الفرار في الصحراء بدلاً من العودة إلى سلمى في البيت، فوثبت بجوادي من فوق ذلك التل فسقط على الأرض جثة هامدة، وانطلقت ماشياً حتى خرجت من ضواحي القاهرة فتربصت لأعلم النتيجة، ثم علمت أن دم المماليك أصبح هدراً حيثما كانوا، فأوغلت في هذه البرية حتى وصلت إلى هنا فالتجأت إلى أمير إحدى القبائل، فهو يرسل لي كل ما أحتاج إليه من الطعام واللباس والخدم. وقد دهمني الشيب في مقتبل العمر كما يرى سيدي الأمير".

★★★

فبهت الأمير لهذه القصة الغريبة ومن الغرائب أنه مع فراسته المشهورة لم

ينتبه لعلاقة أمين بك بغريب، أو لعله انتبه وتجاهل لغرض في نفسه، على أنه قال لأمين بك: "طب نفساً وقر عيناً فلا بد لي من أن أفاوض العزيز في ذلك حينما أعود إلى القاهرة، وأرجو أن أستطيع مكافأتك على حسن صنيعك".

وطلب إليه أمين بك أن يحفظ ذلك سراً، فوعده بذلك.

- ٦ -

إبراهيم باشا

ما كاد الأمير بشير يعود إلى رجاله في الخيمة بعد أن استمع لقصة أمين بك حتى جاءه رسول قادم من بني سويف وبيده كتاب ينبئ بقرب مرور إبراهيم باشا بالفشن، في طريقه إلى الفرطوس في جهات الصعيد، فالتفت الأمير إلى أمين بك قائلاً: "هذه فرصة يجب أن لا نضيعها، فإن إبراهيم باشا ابن عزيز مصر سيمر بنا قريباً، ولا ريب أنه ينزل ليبيت عندنا ليلة أو يقضي بيننا نهاراً، وأنت تعلم أنه صاحب منزلة كبيرة عند أبيه، وقد سبق لي أن حادثته فوجدته حسن الطوية محباً للعدل، فإذا اغتنمنا هذه الفرصة وقصصنا عليه القصة ساعدنا ولا ريب، فالأصوب على ما أظن أن تركب معي إلى الفشن متنكراً في زي واحد من رجالي فلا يعرفك أحد. وإذا لم يعف العزيز عنك، أو لم تجد امرأتك وأولادك وكرهت الإقامة بهذه البلاد فإنك تسير معي إلى لبنان وتكون من اخصائي، لأنك أوليتني جميلاً لا أنساه مدى الدهر".

فانشرح صدر أمين بك لهذه العبارة اللطيفة وقال: "سمعاً وطاعةً". ثم أمر من في الخيام أن يقتلعوها وكتب كتاباً ودفعه إلى واحد منهم وأمره أن يوصله إلى أمير القبيلة التي عضدته مثنياً عليه، وأسر إلى ذلك الرسول بما جرى وطلب إليه أن يبلغ ذلك إلى أميره سراً.

وفي عصر ذلك اليوم ركب القوم وسار الأمير بشير في طليعتهم وإلى جانبيه الأمير أمين وأمين بك. وكان هذا قد طلب إلى الأمير بشير أن يناديه باسم سليمان. فصار كل معه يعرفونه بهذا الاسم. فلما وصل الجميع إلى الفشن سأل

سليمان عن غريب فقيل له: "إنه في خير وسلامة، فذهب إليه وقبله، فقبل غريب يده، ولم يكن غريب ولا أحد من أولادٍ الأمير يعلم شيئاً عن أمين بك سوى أنه رجل له فضلٌ عظيم، وقد جاء به أبوهم ليكافئه بالتوسط عند عزيز مصر ليعفو عن ذنب كان قد اقترفه، كما علموا أن اسمه سليمان.

ثم بعث الكاشف إلى الأمير يطلب إليه التوجه بمن معه إلى بني سويف بأمر العزيز، فرحلوا إلى هناك، وبعد قليل وردت الأخبار بقرب وصول إبراهيم باشا فأخذ الكاشف يهيئ معدات الاستقبال والترحيب، فجاء بمن عنده من الجند ورتبهم صفوفاً عند ضفة النيل وهم في أحسن ما لديهم من الملابس، ونزل الأمير بشير ومن معه لاستقباله. أما أمين بك فبقي في البيت متنكراً بثياب أحد رجال الأمير.

وفي ذات صباح وصل إبراهيم باشا في ذهبية رست به على شاطئ النيل. ولما طلع إلى البر تلقاه الكاشف وقبل يده ثم قدم له الأمير بشير فتصافحا وسارا معاً إلى المنزل.

وكان إبراهيم باشا ربعةً في الرجال، مستوي القامة منتصبها، وكان إذ ذاك في الخامسة والثلاثين من عمره، دقيق الأنف أشهل العينين حادهما مع ارتفاع مقلتيهما، ووجه مستطيل فيه أثر الجدري، أشقر الشعر وعلى رأسه الطربوش العسكري الطويل، وقد لبس الحلة الرسمية وعلى صدرها وكميها جدائل القصب.

وكان وجهه أقرب إلى العبوسة منه إلى الطلاقة والدعة، ولذلك لم تكن الرعية تحبه كأبيه، وكان سريع الغضب حاد الطبع لكنه سليم النية ليس في قلبه مكر ولا خداع البتة.

فلما وصلوا إلى المنزل دخل إبراهيم باشا والأمير بشير ومن معهم إلى غرفة الاستقبال المفروشة بالسجاد والوسائد والمقاعد فجلسوا عليها. وكان غريب في غرفته وبجانبه سليمان يلاطفه ويعتني به، وقد فعل ذلك حتى لا يراه إبراهيم باشا.

وقال إبراهيم باشا للأمير بشير: "كيف وجدتم مصر أيها الأمير؟".

فقال: "وجدتها على غاية ما يكون من الخصب، وتربتها تختلف عن تربة بلادنا كثيراً، وقد سبق أن جئت إليها مرةً قبل هذه غير أني لم أتجاوز الإسكندرية حينئذ ولم أرى شيئاً من خصب هذا البر السعيد، وقد علمت أيضاً أن الفضل لوالدكم في حفظ الأمن وسعادة الأمة".

فقال إبراهيم باشا: "لو أنك علمت الحالة التي كانت عليها مصر قبل أوائل هذا القرن، أي في أيام الأمراء المماليك، لعجبت من التغير الذي طرأ عليها، فقد كانت الأرواح والأموال إذا ذاك لمن هو أقوى بطشاً، ولا بد أنك كنت تطلع على أخبارهم، فأين تلك الحالة من حالة البلاد الآن؟".

فقال الأمير بشير: هذا أمر لا يختلف فيه اثنان، فوالدكم هو الذي أحيى هذه البلاد من العدم، غير أن الشعب المصري والحق يقال شعبٌ عامل مطيع".

قال: "إن المماليك وأحزابهم كانوا مصدر الفساد، ولذلك هدأت البلاد وساد الأمن والرخاء بعد أن أهلكناهم".

قال: "أيأذن لي جناب الباشا في أن أذكر له بعض الملاحظات في شأن هؤلاء المماليك؟. قال: "قل ما تشاء".

قال: "إن هؤلاء المماليك كانوا في أيام تسلطهم يعيثون فساداً في البلاد، غير أن ذلك لا ينطبق عليهم جميعاً، لأنهم كانوا في القرن السابع والثامن والتاسع وأوائل العاشر سلاطين هذا القطر، وقد تركوا من الآثار ما لا تنكر عظمته، لكنهم بعد تغلب السلطان سليم العثماني ودخوله مصر انحلت عزائمهم، وبعد أن كانت السلطة في قبضتهم أصبحوا ثانويين في الحكم كما تعلم، ولا أظنك تخالفني في أن الباشوات الذين كانت ترسلهم الدولة العلية ولاة على مصر منذ دخول هذه البلاد في حوزتها كانوا سبباً لتمرد المماليك واستبدادهم، لأن هؤلاء كانوا يرون الباشوات أشباحاً بلا أرواح، حتى آل

الأمر إلى أن استقل علي بك الكبير بحكم مصر عن الباب العالي وفتح سوريا في أواسط القرن الماضي، ولو لم يخنه صهره محمد بك أبو الذهب لبقيت مصر وسوريا مستقلتين. ولا أعلم أن هذا الرجل استعمل في كل أعماله ما يقال إنه خيانة".

" ثم لما جاء الفرنسيون إلى مصر، نقموا على المماليك وبالغوا في التشهير بهم، ولم يكن ذلك إلا إثارة لعواطف المصريين ليساعدوهم عليهم رغبة في الاستيلاء على البلاد، وزد على ذلك أنهم بعد تولي جناب والدكم أذعنوا له وخضعوا لأوامره بعد أن ساعدوه في نيل أمنيته، وقد ورد العفو عنهم من جلالة السلطان محمود، وبلغ من تمكن عرى الألفة والولاء بين جناب والدكم وبينهم أن تبولدت الزيارات العائلية بينه وبين زعيمهم شاهين بك، ومن هنا كان قتلهم بالطريقة التي علمناها من الأمور التي تدعو إلى الملاحظة".

فقال إبراهيم باشا: "إن هذه الملاحظة ذكرها لوالدي كثيرون من كبار القوم الذين ذاكروه في هذا الشأن، وقد يتبادر إلى الذهن أنهم على حق فيها، غير أن للمسألة وجهاً آخر وهو أن أولئك المماليك عرفوا مذ كانوا في منصب السلطنة في مصر بأنهم ليسوا من أصحاب العصبية، بمعنى أنهم قلما كانوا يتوارثون الملك، بل كانت الحكومة عندهم لأشدهم بأساً وأكثرهم أحزاباً، فلم يكن الملك يصل إليهم إلا خلسةً واغتصاباً. ثم لما صارت البلاد في حوزة بني عثمان لم يبقهم السلطان سليم في منصب الأمراء إلا رغبةً منه في التخلص من شرهم ولكي يكونوا عيوناً على غيرهم من أعضاء الحكومة.

"وقد علمت ما كان من تطاولهم على الباشوات العثمانيين الذين كانوا يتولون حكم مصر، حتى أن الحكومة العثمانية عهدت إلى ولاتها هنا بعد الحملة الفرنسية في أن يقتلوهم، وكانت تلك الأوامر سرية، غير أن الباشوات لم يتمكنوا من ذلك. فلما اعتلى والدي منصب الولاية كانوا بحسب الظاهر قد أذعنوا، ولكنهم ما برحوا سبباً لقلقه، فلما عهد إلى والدي سنة ١٨١١م في اخضاع الوهابيين الذين ثاروا في شبه جزيرة العرب، نمى إليهم أنهم

سيغتنمون فرصة غياب الجند هناك لنيل مآربهم فسبقهم هو وأهلكهم. ولا بد أنه فعل ذلك بإيعاز من الباب العالي، وإني أؤكد لك أيها الأمير أنه لو لم ينلهم ما نالهم لكانوا شر عقبة في سبيل نجاح البلاد وسعادتها".

فقال الأمير بشير: "إذا كان هلاكهم قد جرى عملاً بأوامر سلطانية فجناب والدكم براء من تبعته، على أني اذكر رواية سمعتها عن والدكم حدثت يوم مقتل هؤلاء المماليك، وذلك أنه لما خرج موكبهم من قصره بالقلعة كان جالساً على ممشى يشرف على مكان المذبحة وهو يدخن بالنارجيلة، ولم يكن عنده إلا صديقه محمد بك لاظ أوغلي وصالح قوش زعيم الإنكشارية. فلما بدأت المذبحة لم يعد يستطيع البقاء لمشاهدتها فدخل ديوانه بعد أن أخرج من كانوا فيه وبقي منفرداً وقد استولى عليه السكوت والرهبة وتغيرت هيئته لشدة تأثره واضطراب فؤاده وعزوفه عن مشاهدة ذلك المنظر الهائل، ولعل هذا من الأدلة على أنه لم يقتلهم اختياراً. وعلى أية حال لدي أمر سأعرضه على جنابكم وله علاقة ببحثنا، وهو أن أحد هؤلاء المماليك نجا من تلك المذبحة اتفاقاً، وهذا الرجل قد أولاني جميلاً بإنقاذ أحد أولادي من مخالب الموت، ولم أرى وسيلة أكافئه بها خيراً من إلتماس العفو عنه من جناب والدكم، فهل تظن ذلك ممكناً؟".

فقال إبراهيم باشا: "إن هذا البيك الذي نجا، التجأ إلى بعض القبائل البدوية في هذه الجهات، وقد كان في عزم والدي أن يهلكه حالما يعلم بمكانه، ولكنني أعلم أنكم مكرمون لديه فلا شك في أنه يجيب طلبكم، وسأعرض عليه هذا الأمر عقب عودتي من هذا السفر".

فشكره الأمير بشير شكراً جزيلاً وقال: "إني إذا لم أستطع خدمة هذا الرجل لا يستريح ضميري".

فقال له إبراهيم باشا: "طب نفساً فسيكون ما تريد إن شاء الله".

وبعد انتهاء الحديث في هذا الموضوع، انتقلا إلى الحديث في موضوعات

أخرى فسأله الأمير عن حرب الوهابيين وما كان من أمرها، فأفاض الباشا في شرح ذلك، ثم حضر الطعام فتناولوه.

وفي اليوم التالي سافر إبراهيم باشا إلى الجهة التي كان يقصدها ثم عاد بعد قليل إلى القاهرة.

- ٧ -

محمد علي باشا

أقام الأمير بشير في جهات بني سويف بضعة أشهر حتى ورد عليه كتاب من محمد علي باشا بالقدوم إلى القاهرة لأنه جاء من الإسكندرية. وكان غريب قد تم شفاؤه، كما كان أمين بك قد علم بما دار بين الأمير بشير وإبراهيم باشا في شأنه واطمأن خاطره، فلما بلغوا القاهرة نزلوا في قصر بضواحيها أعده محمد علي باشا لسكنى الأمير ومن معه، ثم أرسل إليه خمسة من جياد الخيل وطلب إليه أن يأتي إلى قصره في القلعة.

فنهض الأمير وسار معه ولداه وغريب للسلام على عزيز مصر، فدخلوا القلعة حتى جاءوا القصر فوقف لهم الحراس إجلالاً، ودخلوا غرفة الاستقبال المفروشة أرضها بالسجاد والبسط، فإذا محمد علي باشا جالساً على وسادة، وفي إحدى يديه سبحة، وفي الأخرى مذبة، فوقف لاستقبال الأمير بشير ورحب به كثيراً وأجلسه بجانبه، كما رحب بأولاده بعد أن عرّفه الأمير بهم. وكان غريب أكثر إعجاباً بتلك المقابلة الرسمية لأنه لم يشهد مثلها من قبل.

وأخذ يختلس النظر إلى محمد علي باشا، فإذا هو ربعةٌ في الرجال، عالي الجبهة واسعها، بارز الحاجبين أسود العينين صغير الفم باسمه، كبير الأنف متناسب الملامح، معه هيبة ووداعة، ولباسه غاية في البساطة، وعلى رأسه الطربوش الجهادي.

وبعد تبادل التحية سأل محمد علي باشا الأمير بشيراً عن أولاده والتفت إلى غريب ودعاه إليه وأجلسه بجانبه ورأى أثر الجرح في رأسه فقال الأمير بشير: "ما هذا الأثر أيها الأمير؟". فقال: "هذا أثر ضربة كادت تقضي عليه

في صحراء مصر".

فعجب محمد علي باشا وقال: "وكيف ذلك؟". فقص عليه حكايته إلى أن قال: "ولولا أن أحد الرجال الفضلاء أنقذه من مخالب الموت لما كنت رأيته، فكم أنا مدين لهذا الرجل؟".

فقال: "حقاً أنه لأهل لأحسن مكافأة".

فقال الأمير: "إنني أرجو أن تكون مكافأته على يديكم". ثم أشار إلى أنه يريد أن يخاطبه في هذا الأمر على حدة، فنهض وانتحى به ناحيةً من الغرفة ففهم الحاضرون أنهما يريدان الخلوة واستأذنوا في الخروج إلى غرفة أخرى. وعلى أثر ذلك قص الأمير بشير القصة حتى أتى على آخرها إلا أن قال: "وأفضل ما أستطيع أن أكافئ به الرجل أن أحصل له على العفو من جنابكم، فما قولكم؟".

فالتفت العزيز إلى الأمير بشير قائلاً: "قد ذكره لي ابني إبراهيم، وإكراماً لخاطرك قد عفوت عنه، وإنما أرجو ألا يقيم بهذه البلاد، إذ أن ظهوره فيها آمناً بعد إهداري دمه ونقمتي عليه لقرابته من الأمير الألفي الذي كان ساعياً في إخراج مصر من يدي وتسليمها للانجليز، مما لا يتفق وسياستي، على أن مدحه أخلاقه وإقرارك بمعروفه قد حملاني على العفو عنه".

فقال الأمير: "سيكون بمعيتي إلى أن أبرح مصر فآخذه معي، ولكن لا بد له من البحث عن أسرته فأرجو السماح له بذلك".

فقال: "قد أجزنا له ذلك على أني أود أن أتحدث معك في شؤون أخرى، وحبذا لو جئت إلى قصر شبرا ومعك أنجالك الأعزاء، فهناك نستطيع التحدث كما نشاء".

فشكره الأمير بشير وودعه مسروراً بالعفو عن أمين بك. ثم عاد وأولاده إلى المنزل، حيث خلا إلى أمين بك وأخبره بما كان، وأرسل معه بعض رجاله ومعهم كوكبة من الجنود للبحث عن زوجته وأسرته، فكاد يطير من الفرح

وذهب معهم لإنجاز هذه المهمة.

ثم جاء حنا البحري يطلب الأمير وأولاده للتوجه إلى قصر شبرا حسب أمر العزيز، فمضى إليه ومعه أولاده. وفيما هم في الطريق على خيولهم تذكر الغريب أمر تلك المرأة التي وعدوها بإنقاذها من زوجها، فسأل أباه عما تم في أمرها، فقال الأمير: "قد طلقت من ذلك الرجل، ورتب لها العزيز راتباً شهرياً مرضاة لك". فسر غريب بذلك سروراً عظيماً.

ولما بلغوا قصر شبرا وجدوه قصراً بديعاً تحدق به حديقة فيها أطيب الثمار والأزهار والرياحين، واستقبلهم محمد علي باشا ورحب بهم، وأدخلهم غرفة الاستقبال وهي مشرفة على النيل وأجلسهم بجانبه، وأخذ يسأل الأمير بشير عن كل ما يتعلق بولايته في لبنان، فأدرك أولاد الأمير أن وجودهم في تلك القاعة لا داعي له. فخرجوا إلى الحديقة وجعلوا يطوفون فيها ويتمتعون بمشاهدة أزهارها وثمارها ويتحادثون في الفرق بين يوم ضياع غريب وهذا اليوم وما يمكن أن يكون من أمر سليمان والعفو عنه.

وفي تلك الليلة تناولوا الطعام في بيت العزيز وقد أحسن ضيافتهم، ولما خرجوا من عنده ودعهم والتفت إلى الأمير قائلاً: "لا بد من مقابلة أخرى سرية بيني وبينك لا يحضرها أحد". فقال: "سمعاً وطاعةً".

وبعد أيام دعى الأمير بشير وحده إلى القلعة لمقابلة محمد علي باشا، فمضى تاركاً أولاده في المنزل الذي أنزلوا فيه في جزيرة الروضة. فخلا إليه محمد علي باشا وكلمه ملياً عن مقاصده في بلاد الشام، فوعده الأمير بالمساعدة. ثم أخبره أنه عما قليل تصدر الأوامر الشاهانية بالعفو عن عبد الله باشا حاكم عكا ورجوع الولاية إليه.

فقال الأمير: "أنه مما يزيد ثقتي في نجاح مساعيكم لتوسيع دائرة بلادكم، إعتناؤكم بتدريب الجند على النظام الجديد المأخوذ عن نظام الجيش الفرنسي، فإن ذلك من أول دواعي فوزكم، إذ أن أهل الشام وغيرهم من أهل الشرق لا يعرفون هذا النظام، ولذلك لا يتأتى لهم الوقوف أمام جنودكم".

فتبسم محمد علي ثم قال: "هذا صحيح، ولكن لا يخفى عليك أني قاسيت في سبيل ذلك مشقات عظيمة، ولا أزال أقاسي أعظم منها، لأن عساكر الأرناءوط والأتراك قد عظم عليهم هذا التغيير واعتبروه بدعةً مخالفة للشرع الشريف فنقموا علي حتى كادوا يشقون عصا الطاعة، فجئتهم من حيث أرادوا ودبرت لهم وسيلة تريحني منهم ولا تخلو من الفائدة لي. وذلك أني أرسلتهم بقيادة ولدي إسماعيل إلى الأصقاع السودانية ليفتتحوها فإن استطاعوا ذلك فبها نعمت، وإن هلكوا كنت قد نجوت من مقاومتهم، وقد عدت بعد ذهابهم إلى إتمام مقاصدي في تدريب الجند فأخذت من أهل البلاد من يصلح للجندية وجعلت لهم قواداً من الإفرنج يربونهم على الأعمال الحربية، فإن هذا الشعب قريب الطاعة يتقن التدرب".

فأعجب الأمير بشير بحكمة محمد علي باشا وقال في نفسه: "مثل هذا الرجل خليق بأن تدين لحكمه الأقطار المصرية وغيرها".

وعاد الأمير من عنده مسروراً. وفيما هو في الطريق تذكر سليمان وأنه قد مضى عليه ثلاثة أيام ولم يرجع من مهمة بحثه عن امرأته، وكان قد ألح عليه أن يأتي بها إليه ليراها، فلما وصل إلى المنيل وجده قد عاد ولكنه كئيب مضطرب البال، فسأله عما فعل فقال: "قد بحثت عنها في المدينة فلم أقف لها على أثر، ولذلك تراني قلقاً لا أدري ماذا أفعل وقد أظلمت الدنيا في عيني".

فأخذ الأمير يخفف عنه ويعزيه، فقال أمين بك: "ليس لي تعزية إلا بمعرفة مكان تلك المسكينة التي كنت سبباً لشقائها، فقد قيل لي أنها لم تظهر منذ يوم المذبحة، فلم أعد أستطيع الإقامة بهذه الديار، بل صرت أفضل الموت على الحياة فإني لم أكن طامعاً في العفو إلا أملاً في لقائي بها، والآن لا رغبة لي في الحياة".

فقال له الأمير: "لا تستعظم الأمر إلى هذا الحد وإن كنت لا تستحسن البقاء هنا فمرحباً بك لأننا نأخذك معنا إلى بلادنا ونحلك على الرحب والسعة".

فتنهد ثم قال: "لا يا سيدي فإني لا أستطيع المسير إلى تلك الأنحاء وحدي وقد خرجت منها بملك كريم قد سلبتنيه الأقدار".

ثم تقدم إلى الأمير وهم بتقبيل يديه فمنعه فقال: "إني لا أنسى حسن صنيعك أيها الأمير الجليل" ثم قبل وجنات أولاد الأمير، كما قبل غريباً قبلة أودعها كل حرارة قلبه.

ولا بد أن يكون القارئ قد عرف أن أمين بك هو زوج تلك المرأة والدة غريب. لكنه هو لم يعرف ولده لأنه لم يكن قد ولد يوم فارقه، ولا الولد يعرف أن له أباً غير الأمير بشير، كما أن هذا لم يكن يعلم من أين جاءت جميلة أم غريب.

ولعل حكاية أمين بك قد ذكرته بسلمى، وربما مر بذهنه الشك في أن تكون هي جميلة بعينها، على أن اعتقاده السابق بأنها من أهل صيدا واستبعاده نجاة مثل هذه المرأة حاملاً وفرارها من لبنان بغير أن تخاف انكشاف أمرها كل ذلك قد رفع الشك من ذهنه.

فلما قبل أمين بك يده وأراد الخروج قال له: "ما معنى هذا يا أمين بك؟".

قال: "إنني خارج وسأستخير الله فيما أفعل وأخشى ألا يقدر لي الرجوع إليكم ولعل الله يجمعنا مرةً أخرى".

قال ذلك وخرج ولم يلتفت وراء، فأخذ الأمير يفكر في أمره وقد ساءه خروجه على هذه الطريقة، لكنه عذره لتهيج أفكاره وتأثر عواطفه، وظن أنه ربما خطر له أن امرأته قد ذهبت إلى مكان يعرفه فذهب للبحث عنها.

أما أولاد الأمير وغريب فلم يفهموا معنى هذا الوداع لأنهم لم يكونوا عالمين بالأمر.

وبعد بضعة أيام تلقى الأمير بشير كتباً من لبنان، بينها كتاب من جميلة ذكرت فيها أنها لم تعد تستطيع صبراً على فراق غريب، والتمست من الأمير أن يرسله إليها. فسأل غريباً عن رأيه فقال: "إني أيضاً أرغب في الذهاب إلى بيت الدين لمشاهدة والدتي".

فأرسل معه بعض رجاله يوصلونه إلى لبنان، وأوصاهم بأن يعتنوا به، فودعوه وتوجهوا قاصدين لبنان.

أما ما كان من أمر أمين بك فإنه بعد خروجه من عند الأمير بشير سار تواً إلى قصر محمد علي باشا وطلب مقابلته فأذن له، فدخل عليه وقبل الأرض بين يديه وشكره على عفوه عنه ثم قال له: "أيها العزيز، إنه لم يعد يطيب لي المقام بهذه الديار والتوجه إلى بلاد الشام، وها أنذا بين يديك فهل لك أن تقبلني من بعض خدمك على شرط أن ترسلني إلى جهة يكثر فيها الموت، لأني صرت أفضل الموت على حياتي بعد فقد زوجتي وولدي، وكنت قد عولت على الانتحار لكني وجدت أن ذلك ليس من شيم الرجال، فقلت لعل العزيز يرسلني في حرب فأحارب حتى تأتي ساعتي فأموت في ساحة القتال فذلك خير من أن أقتل نفسي بيدي".

فتأثر محمد علي من هذا الكلام، وحاول أن يثنيه عن عزمه فلما وجده مصراً عليه قال: "إذا لم يكن بد من ذلك فأنا أرسلك إلى جهات السودان لتحارب مع ولدي إسماعيل هناك، وستسير إليه مع فرقة من الأرناءوط والدلاتية تقرر إمداده بها اليوم".

فقال أمين بك: "ذلك جل مرادي، وإنما أسألك أن تدعوني باسم سليمان بدلاً من اسمي الحقيقي إخفاءً لحقيقة أمري".

فقال محمد علي: "حسناً". وأمر بأن يلحق بالفرقة المسافرة ضابطٌ من ضباطها. فسارت الحملة في ذلك النهار وهو معها، بعد أن ودع العزيز فدعا له بالعودة سالماً، ولم يعلم الأمير بشير ولا أحد ممن معه بذلك.

- ٨ -

صاحب المنديل

كانت جميلة بعد أن فارقها غريب، لم يعد يهنأ لها طعام ولا رقاد، وكانت تنتظر ورود رسائله لتقرأها وتقبلها، ولم يكن لها من تعزية غير ذلك سوى

التحدث مع سعيد مظهرة له مكنونات سرها، فكان يحاول الترفيه عنها.

ولما ورد لها كتاب غريب الذي وصف لها فيه زيارته للقاهرة وحدثها بما علمه من قصة هلاك المماليك كلهم ما عدا واحداً منهم كأنه كان قد تأخر عن وقت الدعوة فنجا من المذبحة، خفق قلبها وبعثت في طلب سعيد، فأطلعته على كتاب غريب وما فيه، فأطرق هنيهة ثم قال: "يا سيدتي عسى أن يكون ذلك الرجل سيدي البيك".

فبكت جميلة قائلة: "لا أعلم يا سعيد لماذا خفق قلبي عند قراءتي هذه الفقرة في كتاب غريب، ولكن كيف العمل لنعلم الحقيقة؟".

فقال لها سعيد: "أرى يا سيدتي أن نكتب إلى سعادة الأمير بحقيقة الحال لعله يساعدنا ويبحث ذلك الأمر".

فقالت: "أواه يا سعيد، لا يسعني ذلك بعد أن بالغت في الكتمان".

فقال سعيد: "وما المانع أن نخبره بحقيقة حالنا الآن، وما أظن إلا أنه يعذرنا ويساعدنا".

فتنهدت جميلة ونظرت إلى سعيد وقد خنقتها العبرات ثم قالت: "إني أخشى أمراً آخر".

فقال: "وماذا عسى أن يكون ذلك الأمر؟ هل هناك أمر أعرفه أنا؟".

فقالت: "نعم يا سعيد، هناك سر لم أطلعك عليه بعد".

فنظر إليها مندهشاً وقال: "وما هو ذلك السر؟".

قالت: "هو خطأ وقعت فيه منذ صباي، ولا أقوله لك ما لم تتعهد لي بكتمانه كعادتك معي في حفظ الأسرار".

فقال: "يجب أن تثقي بي يا سيدتي بعد الذي رأيته من صادق خدمتي لك وإني أتعهد لك بما تريدين".

فقالت: "اعلم يا سعيد أني لست من نسل المماليك كما تظن، وإنما أنا من بنات أسرة بني شهاب".

فقال سعيد: "أنت من أسرة سعادة الأمير بشير؟!".

قالت: "نعم ألا تذكر كيف كنت أود المجيء إلى لبنان على أثر خروجنا من مصر؟".

فقال: "وكيف صرت زوجةً لسيدي؟".

قالت: "اعلم أني ابنة أمير شهابي من قرية تقرب من هنا، وكان عليه رحمة الله (لأني علمت أنه توفي) يريد أن يزوجني بواحد من أولاد عمي لم أكن أحبه بل كنت أكره معاشرته رغم خطبتي له منذ ولادتي، وقد وعد أبي بذلك أباه. وأصر على الوفاء بوعده، وكنت عند ذلك لا أتجاوز الثالثة عشر من العمر فأضمرت التخلص من معاشرة ذلك الخطيب البغيض، وانتهزت فرصة مقابلة سيدك حيث قدم إلى هذه الجهة مع بعض أقاربه الأمراء المماليك فراراً من الحملة الفرنسية التي فتحت مصر ففررت معه، وكان شاباً لطيفاً فأحببته وتزوجت منه. أما كيف كان ذلك فقد فاتحني أبي في أمر الزواج بابن عمي في ذلك اليوم، فلما سكت عن الجواب فهم أبي أني راضية، وبعد قليل خرج من البيت فجلست أفكر في أمري حتى ضجرت فخرجت إلى الكروم ومكثت هناك مرتبكةً حتى غربت الشمس، فشاهدت جماعةً على خيول كأنهم مسافرون ولمحت بينهم سيدك وجماعته، فوقفت مذهولة وقد كدت أملّ الحياة، فاقترب مني رجلٌ منهم يسأل عن الناطور ليشتري عنباً، وكنت قد شاهدته مراراً قبل ذلك الوقت فلم أخف منه، فلما عرفني قال: "ما بالك هنا أيتها السيدة؟". فقلت: "إني أتمشى بين الكروم". فقال: "تعالي معي لأوصلك إلى بيتك لأن الشمس قد غابت وقد يخشى عليك". فسرت معه وأنا لا أعلم ماذا أفعل، فإذا به قد أخذني إلى جماعته وأنا لا أدري، ثم رأيتهم يهمسون فيما بينهم، وبعد قليل سألني سيدك هل أقبل الزواج به فلم أجبه لأن الحياء غلب علي، غير أني لشدة غيظي من والدي ورغبتي في الفرار من الحفرة التي حفرها لي رضيت بالمسير معهم في ظلام ذلك الليل وبقيت بضعة أيام ودموعي لا تجف، وما زلنا سائرين حتى وصلنا

إلى صيدا وهناك عقد سيدك قرانه بي، ولما عاد إلى مصر أخذني معه، وما زلت معه إلى أن كان ما تعلمه. ولذلك تراني أود إخفاء أمري لئلا أقع في بلاء أعظم، لأن أبي كان قد أباح دمي، وكذلك الأمير بشير لأنه كان حاكماً على لبنان إذ ذاك أيضاً".

فدهش سعيد لهذه الحكاية التي لم تكن تخطر له ببال، وقال لجميلة: "إذن أنت من أقرباء الأمير بشير،والآن ماذا نفعل؟".

قالت: "ما لنا إلا اعتصام بالصبر الجميل، وأنا واثقة بأن سيدك إن كان ما زال حياً لا بد من أن نجتمع به بإذن الله والله مع الصابرين. وأما الآن فأنا قلقة على غريب".

فأخذ سعيد يطيب خاطرها ويخفف قلقها حتى صبرت، ولكنها نهضت ذات يوم من النوم مذعورةً وبعثت إلى سعيد وقالت له: "قد نهضت في هذا الصباح من النوم مترعجة على أثر حلم هالني أمره، ولذلك تراني قلقة على غريب ولم يعد لي صبر على فراقه، فاكتب إلى الأمير بالنيابة عني كي يبعث به إلي إذ لا تعزية لي سواه، فعسى الله ألا يحرمني منه". قالت ذلك وتنهدت.

فكتب سعيد إلى الأمير بشير بذلك، وأرسل الكتاب مع الساعي الذي أقيم لإيصال البريد إليه كالعادة.

وبعد ذلك ببضعة أسابيع جاءت البشائر إلى بيت الدين بقرب وصول غريب، فخرج الرجال لملاقاته وفي مقدمتهم سعيد وأطلقوا البنادق ترحيباً بقدومه. ثم هم به سعيد فقبله وسارع به إلى والدته وكانت تنتظره عند باب الدار فقبلته وشكرت الله على سلامته ودخلت به حجرتها. وبعد أن استراح وبدل ثيابه جلست بجانبه وجاء جميع أهل القصر للسلام عليه، فكان يسلم عليهم ويحادثهم ويلاطفهم وهم معجبون به وبلطفه.

أما والدته فرأت في جبينه أثر جرح فتقدمت إليه وسألته عن أصله فقال لها: "لهذا الجرح قصة سأقصها عليك في المساء".

فصبرت على مضض حتى ولى النهار وفرغوا من تناول الطعام والسمر، ثم

دخلت به حجرتها وجعلت تتأمله في حنو لا مزيد عليه وكأنها لا تصدق أنها تراه، إلى أن تذكرت أمر قصته فسألته أن يقصها عليها. فرواها لها منذ نزل إلى ميدان السباق ثم جمح به جواد الكاشف، إلى أن ضل الطريق في الصحراء وقابله أولئك اللصوص وكادوا يفتكون به لولا أن أدركه مصري ملثم في زي أهل البدو وأنقذه من بين أيديهم. كل ذلك وهي صامتة تتأمل إشارات غريب وحديثه وقلبها يخفق لما كاد يحدق بالغلام من الخطر، ولم تقدر أن تتمالك عن البكاء من أجل ذلك، ومالت كل الميل لمعرفة ذلك الرجل، فسألته: "ألم تعرف ذلك المصري الشهم، وماذا جعله يقيم بالصحراء؟".

فقال: "إنه لم يشأ أن يخبرنا بحكايته، ولكن والدي حين علم بما صنعه معنا زاره في محل إقامته، وعلم منه قصته، وقد جاء معه إلى مترلنا وسار معنا إلى مصر. وفهمت أنه كان في مصيبة عظمى فنجاه أبي منها بتوسطه له لدى محمد علي باشا. وقد كان في نيتنا أن نبقيه معنا لكي نأتي به إلى هنا، ولكنه جاء ذات يوم مودعاً، وعاد ولم نعد نعلم مقره".

فشعرت جميلة بأن الحديث عن هذا الرجل قد شرح صدرها، وأسفت لعدم مجيئه إلى لبنان لتكافئه على معروفه، ولكنها لم تعلم سبب ذلك السرور وإنما نسبته لنجاة ولدها من مخلب الموت.

وفيما كان غريب يحدث والدته ويشرح لها ما شاهده في مصر من الغرائب حانت منها إلتفاتة إلى منديل من الحرير الجميل كان في يده، فارتجف قلبها ونظرت إليه وتأملته فلم تقدر أن تتمالك عن الدهشة، ثم أمسكت نفسها وتناولت المنديل وتأملته فإذا هو منديل زوجها وعليه زركشة من صنع يدها فقالت لغريب: "من أين لك هذا المنديل يا ولدي؟"

فقال لها:"هو المنديل الذي عصب به ذلك الرجل رأسي. وقد بقي معي حتى الآن".

فخافت أن تكثر من السؤال فتشغل بال غريب، وصبرت حتى تقابل

سعيداً في الصباح التالي وتفاوضه في هذا الشأن، ولكنها لم تعد تستطيع الرقاد تلك الليلة لشدة التأثر واشتغال فكرها بأمر ذلك المنديل.

وفي صباح اليوم التالي جاء سعيد لمشاهدة غريب، فتنحت به جميلة ناحيةً ريثما يستيقظ غريب من نومه، وكان ما زال نائماً لشدة تعبه من السفر، ثم قالت لسعيد: "أتعرف هذا المنديل؟". وارته إياه فهتف سعيد قائلاً: "هذا منديل سيدي من أين أتيت به؟". فأخبرته بالقصة التي قصها عليها غريب.

فقال: "يا سيدتي لا يظهر من الحكاية شيء يؤكد ظنوننا".

فقالت له: "أضف هذه الحكاية إلى ما كتبه لنا غريب في كتابه الأخير من مصر".

فقال: "هل سألته عن اسم ذلك الرجل؟".

قالت: "لا وكان يجب أن أفعل ذلك فإن الاسم يحل لنا هذه المشكلة، فحالما يستيقظ أسأله عنه".

ولما استيقظ غريب، سألته عن اسم صاحب المنديل قائلةً: "إني قضيت هذه الليلة أفكر في أمر ذلك الرجل الذي أنقذ حياتك، ولكني لم أذكر أنك لفظت اسمه".

فقال: "إن اسمه سليمان".

فقالت: "حسناً". ولما وجدت اسم الرجل غير اسم زوجها انتفت الشبهة من ذهنها وقالت: "لعل المنديل وقع اتفاقاً في يد ذلك الرجل، وعلى كلّ فإني أستأنس به وأشتم رائحة زوجي". فاحتفظت به.

بقي الأمير بشير في مصر حتى سنة ١٨٢٢م إذ وردت فرمانات العفو عن عبد الله باشا من الباب العالي، فشكر همة محمد علي باشا عزيز مصر، واستأذن في العودة إلى بلاده، فطلب إليه أن يبقى في مصر وقتاً آخر وقال له: "إني لم أفعل ما فعلته مع والي عكا إلا مرضاة لك، وأود بقاءك هنا لأنك بمنـــزلة ابني إبراهيم". فشكر فضله قائلاً: "عسى الله أن يقدرني على مكافأتك".

فأهدى محمد علي باشا إليه وإلى أولاده ثلاثة فراء، وثلاثة جياد أصيلة،

وقال له: "إذا كنت تستطيع أن تعبئ لي أربعة آلاف مقاتل من رجالك الأقوياء فافعل، لكي أرسلها نجدةً لولدي إبراهيم الذي سار لمحاربة بلاد اليونان لأنها شقت عصا طاعة الدولة العثمانية، وعهدي برجال لبنان أشداء يعتمد عليهم.

فقال: "سمعاً وطاعةً". ثم ودع العزيز، وسار ومعه أولاده ورجاله إلى الإسكندرية، فإذا وباء الطاعون قد تفشى فيها فنزلوا خارجها، ثم ركبوا السفينة إلى عكا، فلما وصلوا إليها أطلقت المدافع تحيةً له، وفك جنود الدولة العثمانية حصارها حسبما جاء في الفرمان السلطاني، الذي أرسل إليهم على يد السلاحدار المرسل مع الأمير بشير من لدن محمد علي باشا، ثم عاد أولئك الجنود من حيث أتوا تاركين المدينة، وسار الأميران خليل وأمين إلى بيت الدين، أما الأمير بشير فبقي في عكا حيناً وهو موضع الإكرام من عبد الله باشا.

ولما وصل الأميران خليل وأمين إلى بيت الدين، جاء أعيان البلاد للتسليم عليهما، وكان فرح غريب بلقائهما عظيماً.

★★★

أما جميلة وسعيد فكانا في قلق بالغ تتقاذفهما الأفكار والظنون في شأن المنديل الذي حصل عليه غريب من الرجل الذي أنقذه من اللصوص في مصر، وكانا في انتظار مجيء الأمير بشير لعلهما يستطلعان الحقيقة منه بوجه من الوجوه، وقد حاولا معرفة ذلك من ولديه خليل وأمين فلم يعرفا منهما أكثر مما عرفاه من غريب.

ولم يعد الأمير بشير إلى بيت الدين إلا بعد وقت طويل، لاشتغاله ببعض الشؤون الخاصة بإمارته وغيرها. فلما عاد إليه، بقي وقتاً طويلاً آخر مشغولاً باستقبال وفود المهنئين.

وفي ذات ليلة، وكان القمر بدراً والجو صافياً، أحب الأمير أن يقضي بضع ساعات في الصحن الداخلي بالقصر أمام بركة الرخام، ففرشت الطنافس في

ذلك الصحن، وجلس الأمير وأمامه امرأته وجميلة وأولاده بعد تناول العشاء وشرب القهوة. فاتكأ في مجلسه يتأمل جمال الطبيعة ويطلق لأفكاره العنان، فجال في خاطره سفره إلى مصر وما كان من ترحيب عزيزها به، إلى أن طرقت ذهنه مسألة غريب وجموح الجواد به هناك فالتفت بغتةً إلى امرأته قائلاً: "أتذكرين يا أم خليل قصة الأميرة سلمى".

فخفق قلب جميلة، وقالت زوجة الأمير: "نعم أذكرها ولا أنساها، لأني أحبها محبةً عظيمةً، وما زادني تذكراً لها أن عزيزتي جميلة تشبهها شبهاً عجيباً كما ذكرت لك غير مرةً".

فازداد خفقان قلب جميلة حتى أنها لم تعد تتمالك عن إظهار عواطفها، فقال الأمير: "وماذا تظنين أن تكون الآن؟".

قالت: "ما أظن أنها باقية على قيد الحياة، فرحم الله أباها وعفا عنه فهو سبب فقدها. لكن ما الذي جعلك تتذكرها الآن؟".

قال: "سمعت في أثناء سفري قصةً عجيبةً سأقصها عليك فيما بعد، لأني أوصيت بألا أبوح لأحد، ولكني وأنت جسد واحد حسب قول الإنجيل فلا أكون خالفت الوصية".

ولا تسل عن حال جميلة وقتئذ فإنها خافت أن يكلمها الأمير فيتلعثم لسانها لشدة تأثرها فينكشف أمرها، على أنها كانت متشوقة لسماع تلك الحكاية ولم تستطع إظهار تلك الرغبة، بل لم يكن في إمكانها أن تسأل الأمير عن ذلك لأنها كانت شديدة الاضطراب وقد خالج قلبها الخوف والهلع،وهمت بالانصراف من الغرفة ريثما يسكن روعها فلم تستطع الوقوف.

فقالت زوجة الأمير: ما المانع من أن تقص علينا تلك القصة الآن دون أن تذكر أسماء الأشخاص، ثم توضحها لي بعد ذلك بالتفصيل؟".

فقال الأمير: "أخشى أن أكون قد خالفت الوصية، وهذا أمر لا يجمل بمثلي". على أني أقول لك الآن كلمة واحدة من تلك القصة وهي أني التقيت في سفري إلى مصر بالرجل الذي اختطف سلمى واطلعني على قصة اختطافها".

وما أتم عبارته حتى تنهدت جملية من صميم قلبها، وأغمي عليها. وكان غريب بجانبها فذعر وصاح بها قائلاً: "أماه، أماه — ماذا بك؟". ثم بادر الحاضرون فأتوها بالمنبهات ورشوا وجهها بالماء حتى أفاقت وهي لا تتمالك عن التنهد والبكاء، فاضطرب الجميع وظنوا أنها أصيبت بداء الصرع أو غيره من الأدواء العصبية، فأخذوا في إسعافها ومواساتها حتى سكن ما بها وأحبت أن تعتذر عما سببته لهم من الإزعاج، فتجلدت وأخذت تتظاهر بأن ذلك حدث لها لغير سبب تعلمه.

على أن الأمير لم يقتنع بذلك الإعتذار، ولا سيما أنه كان قد خامره الشك في أمر جميلة، وبقي هذا الشك يختلج في صدره إلى أن جاء بيت الدين، ولعله تعمد الإشارة إلى تلك الحكاية ليرى مدى صحة ظنه، فلما ظهر منها ذلك الانفعال لم يجد له سبباً غير ما حكاه. على أنه لم يشأ أن يلح عليها مراعاةً للطف مزاجها وخوفاً عليها مما هو أعظم من ذلك، فأخذ يمهد لها العذر وقال: "نعم إن هذا الإغماء كثيراً ما يصيب صاحبات المزاج العصبي". وجعل يراجع في ذاكرته ما عرفه عن جميلة منذ أول ساعة عرفاها فيها، فتذكر أنها لم تخبره عن أصلها بل كانت تحاول إخفاء ذلك ما استطاعت.

ومرت كل هذه التصورات في مخيلته بأسرع من لمح البصر فاستأنف الحديث مظهراً أنه لا يعلم شيئاً من أمر جميلة وقال لامرأته: "قلت لك أني سأخبرك بهذا الحديث في مساء هذه الليلة أو غداً إن شاء الله، إلا أن عزيزتنا السيدة جميلة قد كدرت صفاءنا الآن بما عرض لها في هذه الليلة".

وكانت جميلة متكئة على صدر غريب لا تبدي حراكاً ولا تنطق بكلمة. وشعر الأمير بذلك فخاف عليها فقال لها: "لعل الأفضل لك أن تسيري إلى فراشك، فربما كان ما عرض لك من تأثير ضوء القمر".

فلم تجبه ولكنها حاولت النهوض فلم تستطع لأن ركبتيها كانتا ترتجفان رغم إرادتها، ولم يكن ذلك إلا ليزيد ارتباكها وخجلها، لكنها تجلدت

ونهضت بمساعدة غريب وسارت تواً إلى حجرتها وغريب معها، فاستلقت على الفراش وأطلقت لنفسها عنان البكاء لأن العبرات كانت قد خنقتها.

فاضطرب غريب وأخذ يكلمها ويسألها عن سبب ذلك، فلم تجبه وأشارت إليه ألا يرفع صوته لئلا يعلم أحد ببكائها. فلم يسعه إلا السكوت وصار يبكي لبكائها.

وأطلقت هي العنان لهواجسها وأفكارها، فتمثل لها زوجها كما شاهدته في المرة الأخيرة خارجاً من البيت راكباً جواده قاصداً القلعة، وزاد بها الوجد حتى ظنت ذلك الخيال حقيقة فصاحت وهي لا تشعر منادية: "أمين.. أمين!". فحسب غريب أنها تريد أميناً ابن الأمير بشير، فخرج وعاد به، فلما دخل ووجدها على تلك الحال قال لها: "ها أنذا يا خالتي فماذا تريدين؟".

فانتبهت لنفسها ونهضت من الفراش قائلةً: "أنا لم أنادك يا عزيزي، وقد ناداك غريب خطأ". فقاطعها غريب قائلاً: "بل سمعتك ترددين اسم أمين أكثر من ثلاث مرات وليس عندنا أمين آخر هنا".

فقالت: "إذن فالخطأ مني أنا".

فأخذ أمين يلاطفها ويخفف عنها ويأتيها بماء الزهر وغيره من المنعشات تسكيناً لعواطفها.

أما الأمير بشير فسأل امرأته: "هل هذه الأعراض أصابت جميلة من قبل؟".

فقالت: "إن هذه أول مرة شاهدتها كذلك". وظهر على زوجة الأمير أثر الانزعاج لذلك المنظر، فآثرت الدخول إلى حجرتها، ونهض الأمير بشير ودخل مخدعه وهو يفكر في أمر جميلة، وبعث يسأل عن حالتها، وكذلك صنعت زوجته، فبعثت إليهما بأنها في خير خوفاً من أن يأتيا إليها ويشاهدا سوء حالها.

وأخذت جميلة تلوم نفسها على ما ظهر منها، وهي موجسة خيفة من أن يؤدي هذا إلى انكشاف أمرها، ولو أنها علمت أن الأمير قد صفح عن عملها وعمل زوجها لما تأثرت إلى هذا الحد، ولكنها كانت تعتقد أن انكشاف

أمرها ربما آل إلى انتقام الأمير منها فضلاً عن أنه يجلب العار لها ولابنها.

فقضت الليل وهي في لجج من الهواجس والمخاوف، حتى ضاق بها المخدع فنهضت من فراشها فإذا بغريب قد نام ففتحت باب المخدع رويداً رويداً وغادرته والسكون مستولٍ على القصر، فلا يسمع فيه إلا صوت السواقي التي تسقي بساتين بيت الدين، فأخذت تنقل قدميها بكل هدوء حتى بلغت شرفة تطل على كروم القرية وبساتينها، فتطلعت منها إلى الوادي المحفوف بأشجار التوت والتين والكرم الممتد إلى البحر المتوسط بعد أن يمر متعرجاً بين جبال شامخة مكسوة بتلك الأشجار، وراق لها التوسد على تلك التلال، لكنها خشيت أعين الرقباء فاستترت وراء الشجر وقد استولت الرهبة عليها وأثر في نفسها ذلك المنظر العجيب، وأخذت تتأمل ما حدث منها وما سمعته من الأمير بشير. وكانت كلما ذكرته يختلج قلبها وتصطك ركبتاها، ثم تحدث نفسها وتبحث عن وسيلة تصل بها إلى معرفة حقيقة الخبر فكانت تقول تارةً: "الأفضل أن أطلع الأمير على حقيقة أمري وأترامى على قدميه وأطلب السماح منه وأستطلعه حقيقة الأمر فعسى أن يكون حبيبي لا يزال على قيد الحياة". ثم ترجع فتقول: "لا لا. لا أظن ذلك، فقد أصبح في عالم الأموات منذ سنين". ثم تعود فتتذكر ما كتبه إليها غريب عن الرجل الذي نجا من المماليك، فتعلل نفسها بذلك.

وقضت ساعة في تلك الهواجس ومثلها ثم طرق ذهنها بغتة خادمها سعيد ورئيس الدير، فخفت هواجسها إذ علمت أنهما عالمان بأسرارها فعزمت أن تخلو إلى سعيد في الصباح وتطلب إليه أن يدعو لها رئيس الدير ليتفاوضا جميعاً في الأمر. وقد هان عليها كشف أمرها للأمير على يد رئيس الدير لما علمته من منزلته عنده. فشعرت بأن عبئاً ثقيلاً تزحزح عن صدرها وانفتح لها باب الفرج، ثم أحست بالبرد فعادت تمشي الهوينى إلى مخدعها، وباتت ليلتها تحلم بأنها بلغت غاية السعادة.

وفي الصباح بعثت زوجة الأمير تسأل عن صحة جميلة فقيل لها: "إنها في عافية وسلام". ولما استيقظت جميلة بعثت في طلب سعيد، فلما حضر قصت عليه ما كان من الأول إلى الآخر، وطلبت إليه أن يدعو الرئيس للمفاوضة في ذلك، فلما حضر الرئيس قبلت جميلة يده وجلس الثلاثة يتفاوضون.

فقالت جميلة: "إن قلبي أيها الأب المحترم لم يعد يحتمل شيئاً لشدة ما عانيت في الليلة الماضية، وقد شعرت بأنني لا أستطيع أن أصنع شيئاً إذا لم تمداني برأيكما".

ثم تنهدت وتأوهت وواصلت حديثها فقالت: "وما أظن أن تجدد آمالي في بقاء زوجي حياً، قائماً على الوهم فقط، فهناك قرائن وأدلة كثيرة على ذلك، من بينها ما عرفناه عن نجاة أحد أمراء المماليك من مذبحة القلعة ثم هذا المنديل الذي أتى به غريب من الرجل الذي أنقذه من الموت، فإنه منديل زوجي. وأخيراً ما ذكره الأمير أمس من أن الرجل الذي اختطفني لا يزال على قيد الحياة، وهذا أكبر دليل عندي. وعلى هذا أريد استطلاع قصة ذلك الرجل من الأمير، فإنها تزيل كل شك، ولا أستطيع أن أكون أنا السائلة عن هذه القصة، مخافة انكشاف أمري، ولما كان فراري مع زوجي مخالفاً لإرادة أبي ولمبادئ الأسرة، فأخاف أن يكون في كشف أمري ما يمس كرامة ولدي".

وكان رئيس الدير لا يعلم خبر اختطافها، ولا كونها من أسرة الأمير بشير، فأبهم عليه الأمر، ولم يفهم مرادها، ولاحظ سعيد ذلك، فقص عليه حكاية سلمى منذ خروجها من بيت أبيها، فعجب الرئيس لذلك الاتفاق الغريب، ثم تبسم ونظر إلى جميلة بوجه ضحوك وقال: "طيبـــي نفساً يا سيدتي ولا تخافي، فإني قد تعهدت لك منذ عرفتك بأن أقوم لك بكل خدمة قدر عليها. ويلوح لي الآن أني قادر بعون الله على أن أقوم لك بهذه الخدمة".

فتنهدت جميلة قائلةً: "إنك بذلك يا حضرة الأب تكون قد أنقذت نفساً من الموت، وعسى أن تكون العاقبة خيراً ويكون زوجي لا يزال على قيد الحياة فتكون قد أنقذت نفسين".

فأسرع سعيد وقبل يدي الرئيس وجثا عند قدميه قائلاً: "إنك إذا فعلت ذلك أيها السيد المحترم أكون لك عبداً إلى الأبد، فبحياة كهنوتك دبرنا برأيك".

فقال لهما الرئيس: "طيبا نفساً وقرا عيناً، فها أنذا ذاهبٌ إلى الأمير مساء اليوم، لأني أخشى ألا تتسنى لي مقابلته في النهار لكثرة شواغله في هذه الأيام، لأن الأمير عباساً الذي تولى لبنان في المدة الأخيرة يسعى في استعطافه وقد توسط في أمر الصلح بينهما المشايخ والأمراء فصار مجلس الأمير لا يكاد يخلو منهم. أما في المساء فالغالب أن يكون المجلس خالياً من مثل هذه الشواغل، ومسألتنا هذه غاية في الدقة وينبغي أن أخاطب فيها الأمير ملتزماً جانب الحذر والاحتياط خوفاً من غضبه، لأنه إذا غضب يصعب استعطافه، وعلى كل حال يجب علينا أن نتكل على الله القادر على كل شيء، ومن الآن فصاعداً سأصلي من أجلك يا ابنتي ومن أجل زوجك عسى الله أن يجمعكما على خير". قال ذلك ونهض، فنهضت جميلة وقبلت يديه، وفعل سعيد مثل ذلك، وشيعاه ورجعا.

وفيما هو خارج من دار الحريم، سمع أحد حراس قاعة مجلس الأمير يناديه قائلاً: "إن الأمير بشيراً يدعوك إليه". فصعد السلم حتى دخل القاعة، فرأى الأمير وحده فتعجب لأن ذلك قلما يتفق للأمير بشير فلما دخل وحيى رد الأمير تحيته بمثلها وقبل يده، فتوسم في وجه الأمير بعض ملامح الكدر والارتباك، وجلس ساكتاً وقد اشتغل باله، ففاتحه الأمير بالخطاب قائلاً: "أراك شرفت دارنا هذا الصباح يا حضرة الرئيس بعد أن طال غيابك".

فقال: "أنت تعلم أيها الأمير أننا لا يمكن أن ننسى أياديك البيضاء، وقد تشرفت بزيارتك والسلام عليك يوم مجيئك من الديار المصرية، ثم رأيت كثرة الشواغل التي تتجاذبك فرأيت ألا أشغلك بزيارتي حتى تفرغ مما أنت فيه".

فقال الأمير: "وكيف شرفتنا بالزيارة هذا الصباح؟".

فبغت رئيس الدير، إذ لم يكن ينتظر هذا السؤال من الأمير، لكنه تجاهل وأجابه قائلاً: "إني أتيت في هذا الصباح لزيارة صديقتي السيدة أم غريب".

فقاطعه الأمير مازحاً وقال: "أدام الله هذه الصداقة بينكما، ولكني لا أظن مجيئك مبكراً في هذا الصباح كان من تلقاء نفسك".

فتأكد الرئيس أن الأمير يريد استطلاع سبب مجيئه، فتقدم نحوه باهتمام وقال: "إن حقيقة الأمر أيها الأمير الجليل أني جئت بدعوة من السيدة جميلة لتشكو لي ما ألم بها أمس من العوارض التي كادت تقضي عليها، وقد أفهمتني أموراً أحبت كتمانها عن سعادتكم خوفاً من غضبكم، لأن حكايتها أغرب من حكاية السيدة سلمى التي عرضتم لذكرها مساء أمس".

فضحك الأمير قائلاً: "إن قصة السيدة أم غريب ليست غريبة عن الأمير بشير، وإن كانت غريبة عن قدسك. فإن الذي غرف بمجيئها إلى هذه القرية ساعة وصولها لا تخفى عليه حكايتها وإن حاولت هي إخفاءها. وقد قرأت حكايتها أمس على وجهها مكتوبة ببراع عواطفها، ولولا خوفي عليها أمس أن تذهب فريسة الخوف والوجل لصرحت لها بذلك، ولكنني تجاهلت ونصحت لها بأن تذهب إلى مخدعها تلافياً للأمر، وكان في نيتي أن أدعوك هذا النهار لأجعلك واسطة للتفاهم بيننا، لأني أخشى لشدة تأثرها أن تصاب بسوء، وقد أوصيت الحراس بألا يأذنوا لأحد بالدخول علـــي، لكنني أخبرك بأنني عفوت عن زوجها يوم حدثني بحديثه على أثر إنقاذه غريباً من مخالب الموت، وهب أنني لم أعف عنه فإني أضن بحياة جميلة لأنها مثيلاتها قليلات".

فأثنى رئيس الدير على أريحية الأمير ومروءته وشهامته، وبقي مصغياً ليسمع ما يأمر به، فقال: "كنت أحب الآن أن آتي بها إلى هنا واطلعها على حكاية زوجها، ولكن أرى أن ذلك قد يحملها على الشك في مقصدي فترتعب، فالأفضل أن تذهب أنت إليها وتشرح لها كل ما قلته لك، ثم تأتي بها إلى هنا بعد أن يطمئن قلبها".

فنهض الرئيس فرحاً، ومضى إلى جميلة فإذا هي لا تزال تحدث سعيداً

بتلك القصة، فلما رأته تغير لونها وخافت أن يكون لذلك سبب يدعو إلى الخوف، فابتدرها هو بالكلام قائلاً: "نشكر الله الذي وفق سعينا".

فاستبشرت جميلة وشكرت الله، فأطلعها الرئيس على كل ما سمعه من الأمير، فانشرح صدرها ولكنها بقيت خائفة من مقابلة الأمير، فأخذ بيدها، ومضى بها إلى حجرة الأمير، ومعهما سعيد، ثم دخل الرئيس أولاً وأمسك جميلة بيدها وأدخلها عليه وهي مطرقة فلما وصلت إلى مجلسه ترامت على قدميه باكيةً وقبلتهما قائلةً: "اصفح أيها الأمير عن الشقية المخطئة العقوق، أو فاقتلها فإنها تستحق القتل".

فأمسك الأمير بيدها وأنهضها قائلاً: "أهلاً ومرحباً بابنة عمي سلمى، لقد صفحت عنك يا عزيزتي والله غفار الذنوب، تعالي وأجلسي وأتركي عنك الخوف".

ثم بعث إلى امرأته، فلما حضرت أطلعها على حقيقة الأمر وجلس يقص عليهم حكاية أمين بك وقد ذهل الجميع وقد استولت السكينة عليهم وكأن على رؤوسهم الطير وهم ينتظرون ما سيكون من تتمة هذا الحديث.

أما جميلة فكانت تنتظر ختامه بفروغ الصبر لأنها كانت عالمة ببداءته فلما وصل الأمير إلى وداع أمين بك له ولأولاده وذهابه قال: "وإلى أين أتجه؟".

قال: "لا أعلم يا عزيزتي، ولو علمت يومئذ أنه لن يرجع لما تركته يذهب، على أنه لو علم أن زوجته عندي لما سمح بفراقي، ولكن ما العمل وهذه إرادة الله".

فتقدم سعيد واستأذن الأمير في الكلام وقال: "ما الفائدة يا سيدي إذا سمعنا بوجود سيدي ولم نره، فالآن يجب بعد أمر سعادتكم أن ندبر وسيلة لنصل بها إليه".

فقال الأمير: "لا بد لنا من إرسال رجل خبير بأحوال الطريق ليتوجه إلى مصر ومعه كتاب إلى العزيز أطلب إليه فيه أن يساعده في البحث عن أمين

بك".

فقال سعيد: "أنا أذهب في هذه المهمة وأرجو أن أعود إليكم به سالماً إن شاء الله".

فقال الأمير: "سننظر في ذلك غداً".

فقال سعيد: "يا سيدي لا حاجة بنا إلى التأجيل، فإني أعلم أن سيدتي كأنها على جمر الغضا. وأما أنا فلا تسأل عن قلبي الآن. فأرجو أن تأذن لي في الذهاب إلى مصر اليوم للبحث عن سيدي، فخير البر عاجله".

فأعجب الجميع بشهامة سعيد وغيرته، وأمر الأمير كاتب أسراره المعلم بطرس كرامة بأن يكتب كتاباً إلى محمد علي باشا ليساعد سعيداً في البحث عن سيده، وأخذ سعيد يعد معدات السفر، وما حان الظهر حتى ودع الأمير وأهل القصر ولا سيما جميلة وغريباً، وخرج من بيت الدين راكباً والجميع يدعون له بالتوفيق.

وكانت جميلة قد التمست من الأمير أن تبقى حكايتها مكتومة عن غريب، حتى لا يتكدر إن لم يقدر لهم الإجتماع بأبيه، على أن يطلع عليها بعد هذا الاجتماع، فوافق الأمير بشير على ذلك قائلاً: "إنني أتمنى أن يجمعنا الله بأبيه، ولكني سعيد لأنه حتى الآن يحسب نفسه ابن الأمير بشير، فاتركوه على هذا الاعتقاد حتى نرى ما يكون".

وخرجت جميلة من عند الأمير ومعها زوجته، ولم تفترقا طوال النهار، وقد أخبرتها هذه بأنه لم يعد من أسرتها أحد لأن والدتها توفيت بعد وفاة والدها بقليل.

أما غريب فلبث لا يعلم شيئاً عن حكاية أبيه. فلما جاء سعيد لوداعه عجب من ذلك وسأله: "إلى أين أنت متوجه؟". فقال: "إلى مصر، لأؤدي رسالة خاصة من الأمير بشير إلى عزيزها محمد علي باشا".

ثم سار سعيد قاصداً مصر ومعه كتاب الأمير، وقد عقد النية على ألا يعود إلى لبنان إلا وسيده معه. وكان سعيد من أصحاب الغيرة والعزيمة والتدبير

فضلاً عما عهد فيه من الأمانة والوفاء.

فلما بلغ القاهرة، مضى لتوه إلى القلعة لمقابلة محمد علي باشا، فقيل له: "إنه في قصره بشبرا منذ بضعة أيام".

فسار إلى شبرا، وكان يعرف القاهرة وطرقاتها معرفةً جيدة. فلما وصل إلى باب القصر سأله الحراس عن غرضه فقال: "معي كتاباً للباشا، وأريد أن أسلمه إليه يداً بيد". فاستأذنوا الباشا في إدخاله عليه فأذن له.

ودخل سعيد وفي يده كتاب الأمير، فقبل يد محمد علي باشا ودفع إليه بالكتاب. فلما وقف على ما فيه التفت إلى سعيد قائلاً: "هل أنت سعيد خصي أمين بك؟".

قال: "نعم يا مولاي". فقال الباشا: "وأين كنت إلى الآن؟" لا حول ولا قوة إلا بالله!.. إن سيدك قد سار إلى الأقطار السودانية طلباً للموت بعد أن قنط من الحياة لأنه لم يعلم مقر زوجته فأحب الانتحار، ثم رأى أن يسير إلى حيث يكثر الموت لعله يموت موتاً شريفاً. وقد نصحت له بأن يعدل عن هذا، فلما أبى بعثته مع حملة كانت متوجهة إلى السودان لإمداد ابني إسماعيل".

فبغت سعيد وقال: "لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم". ثم أطرق هنيهةً وقال: "لا بأس، لعله خير، وهل تعلم يا مولاي أين يكون الآن في بلاد السودان الواسعة؟" قال: "الغالب أنه يكون فيما بين الخرطوم وسنار، أو قبل ذلك بقليل. لكن ما غرضك من هذا السؤال؟".

فقال سعيد: "أريد أن أسير إليه بنفسي لعلي ألتقي به أو يصيبني ما أصابه".

فقال الباشا: "ولكن هناك أخطاراً جمة ومشقات عظيمة فلا يستطيع الرجل أن يسير منفرداً في تلك الأصقاع".

فتبسم سعيد قائلاً: "إن عبدك أيها العزيز يعرف الأصقاع السودانية شبراً شبراً، وأعرف لغة تلك البلاد وكل عوائدها، وفي نيتي أن أدخل فيما بينهم

كواحد منهم وسأوصل ما أستطيع إيصاله من الأنباء السرية إلى قواد جنابكم هناك إن شاء الله".

ثم قبل يد الباشا بعد أن أخذ منه كتاب توصية لابنه، وأخفى ذلك الكتاب في بطانة حذائه، وقد اختلج قلبه في صدره خوفاً على سيده من الانتحار أو من الوقوع في التهلكة، فقضى بقية ذلك اليوم وسواد ليله في التأهب للمسير، وعمد إلى شحم دهن به جلده كما يفعل السودانيون وجدل شعره جدائل متلبدة بعد أن دهنها بالشحم، وجاء بشملة من القطن واشتمل بها. وهي قطعة مستطيلة من نسيج الصعيد تبلغ عشرة أذرع. ونظراً إلى سواد لونه لم يعد أحد يستطيع أن يميزه من أهل السودان بشيء، ثم اشترى جملاً سريعاً وأعد عليه رحلاً خفيفاً علق في كل مكان من جانبيه قربة من الماء، وهيأ كل ما يحتاج إليه المسافر إلى تلك البلاد. وأرسل كتاباً إلى بيت الدين ذكر فيه ما تم له وعزمه على السفر إلى السودان.

وفي صباح اليوم التالي كان قد وقف على كل ما أراد معرفته من أخبار الحملة التي سار سيده برفقتها باسمه الجديد، ثم غادر القاهرة على جمله بعد أن لبس تلك الثياب وعلق برجل الجمل الدرقة السودانية المصنوعة من جلد وحيد القرن صنع أهل السودان، واعتقل رمحه وعلق سيفه السوداني بكتفه، وسكيناً سودانية بكوعه، وملأ ضبة من التبغ الصعيدي الذي يشربه أهل تلك الأصقاع، وانطلق قاصداً كروسكو من طريق في الصحراء الشرقية مجاور لمجرى النيل، على أن يسير من هناك في الصحراء التي يسمونها العطمور إلى أبي حمد بجوار بربر، ومن هناك يسير بجوار النيل إلى الخرطوم.

★★★

بقيت جميلة تتقلب على مثل الجمر في انتظار عودة سعيد، لم تكن تعلم بسفر زوجها إلى الأقطار السودانية بل كانت تظن أنه في مصر ولا يمضي شهر بعد سفر سعيد حتى يعود به.

ومضى أسبوعان وثالث، وفي أوائل الأسبوع الرابع جاءها البريد بكتاب

من مصر، فإذا هو من سعيد وفيه يقول:

"سيدتي المحترمة المصونة. أقبل يديك، وبعد فإني بلغت القاهرة وبحثت عن سيدي، فعلمت أنه توجه إلى الأقطار السودانية منذ أشهر في حملة كانت ذاهبة لنجدة إسماعيل باشا ابن محمد علي باشا. وقد اختار السفر إلى هناك على ما علمت قنوطاً من الحياة لأنه لم يكن يعلم ببقائك حية، وكان عازماً على الانتحار ثم آثر الموت في ساحة الحرب. ولكن لا تيأسي فها أنذا قد تهيأت للسفر إلى الأقطار السودانية حيث أبحث عن سيدي البيك، والغالب أني لا أغيب أكثر من شهرين ثم أعود إليكم به إن شاء الله ... خادمك سعيد".

فلما قرأت جميلة الكتاب خفق قلبها ووقعت في حيرة، وأطلعت زوجة الأمير بشير عليه، فأخبرت هذه الأمير، فطيب خاطر جميلة.

ومضى شهران ولم يرد خبر من سعيد، فاضطربت جميلة ولم تعد تستطيع الصبر، وجعلت تحسب ألف حساب لما عساه حدث لزوجها ولسعيد، ولما زاد بها القلق توجهت إلى الأمير بشير وقبلت يديه وشكت إليه قلقها، فوعدها بأن يكتب إلى محمد علي باشا في مصر يسأله عن حقيقة الخبر..

وبعد أسبوعين ورد الجواب من عزيز مصر، وفيه يقول: "إن الفرقة التي سار برفقتها أمين بك قد ألحقت بحملة ولدي إسماعيل، والجميع الآن قادمون من الخرطوم شمالاً ومعهم الميرة والرجال، والأغلب أن يلتقي بهم سعيد رسول سعادتكم في جهات شندي. وقد زودته بكتاب إلى ولدي إسماعيل حتى لا يستغشه، ولكي يسلم له أمين بك، والسلام".

فلما اطلعت جميلة على ذلك سكن روعها وأخذت تنتظر الفرج من عند الله. أما غريب فكان لا يعلم شيئاً من كل ذلك، ويقضي بعض نهاره في التعلم وبعضه الآخر في ركوب الخيل وألعاب الجريد والسيف وأنواع الفروسية مع أولاد الأمير بشير، وكان الجميع يحبونه حباً عظيماً.

وبعد قليل وردت الأخبار من مصر بمقتل إسماعيل باشا ومن معه في شندي

بمكيدة، وكان الأمير بشير أول من سمع ذلك الخبر، فرجح عنده أن أمين بك قتل مع إسماعيل باشا هناك، لعلمه بأنه معه، فكتم الأمر عن جميلة خوفاً عليها، ولكنه أخبر به امرأته فما لبث الخبر قليلاً حتى شاع في بيت الدين وبلغ جميلة، فوقعت في وهدة اليأس، وتوجهت إلى الأمير لمقابلته. وكان قد أذن لها في أن تقابله في أي وقت أرادت، جبراً لقلبها المكسور، فلما حدثته بما سمعت قال لها: "الحق يا سلمى أن ذلك الخبر جاءني منذ بضعة أيام ولا يمكننا أن نجزم بشيء قبل أن نقف على تفصيل الحادث، وسأكتب إلى عزيز مصر لأعزيه في ولده إسماعيل وأسأله عما يعلمه عن زوجك".

فتنهدت سلمى وصمتت وقد اغرورقت عيناها بالدموع ثم قالت: "إن قلبي يا سيدي لم يعد يحتمل العذاب والشقاء، فيا ليتني لم أسمع بوجود أمين بك على قيد الحياة لأني كنت قد قطعت الأمل في حياته، ولعل ذلك لم يكن إلا لعذابي تكفيراً لذنوبي التي اقترفتها في صباي".

فأخذ الأمير يسكن روعها ويصبرها، ثم قال: "إن الخبر الصحيح سيكون عندنا بعد أسبوعين على الكثير، وسأكتب اليوم إلى عزيز مصر".

فانصرفت جميلة من حضرة الأمير وهي لا تكاد ترجو خيراً، ولزمتها زوجته وأخذت تسكن روعها وتمنيها بالوعود، ولكن قلبها لم يكن ليطمئن لشدة ما قاساه من الشقاء وما تعوده من الانقباض.

وبعد أسبوعين ورد الجواب من محمد علي باشا ونصه بعد الديباجة:

"إن التقارير التي وردت علي خطأ وشفاها لم تذكر شيئاً عن أمين بك. وقد سألت بعض الذين كانوا في تلك المذبحة فقالوا: "إن الرجل كان في جملة الضباط ولم يعد يراه أحد بعد ذلك، لأن الذين نجوا من المذبحة قليلون وقد تشتتوا فلا يمكننا الجزم بمصيره، إذ من الممكن أن يكون قد نجا في جملة الذين نجوا، أو يكون قد قتل في جملة من قتلوا والله أعلم".

فلما وقف الأمير على ما تضمنه هذا الكتاب رجح لديه أن أمين بك قتل، ولا سيما أنه علم من كتاب سعيد أن الرجل سار إلى السودان طلباً للموت،

فكيف يموت كل رفاقه وينجو هو وحده؟

وكانت سلمى تتنظر ورود الجواب من مصر بفروغ الصبر فلما مضى الأسبوعان توجهت إلى الأمير تسأله، فلما دخلت عليه أحب أن يخفي عليها الحقيقة، ولكنها ألحت عليه فقال لها: "إن الأخبار الواردة من عزيز مصر تقول أنهم لا يعلمون شيئاً عن زوجك، فقد كان مع رجال إسماعيل في شندي و لم يعودا يعلمون عنه خبراً".

فلم تصدق جميلة ذلك، فأطلعها على الكتاب فتأوهت وبكت ولكنها أمسكت نفسها أمام الأمير. ولما خرجت من حضرته سارت تواً إلى غرفتها فدخلتها وأغلقت الباب عليها وأخذت تندب سوء حظها وتلطم وتبكي.

وكان الأمير قد أحس منذ خروجها من عنده أنها ذاهبة إلى حيث يمكنها إطلاق العنان لبكائها، فخاف عليها الهلاك وبعث إلى زوجته وأخبرها بالأمر وقال لها: "سيري إلى سلمى وخففي عنها وعزيها لئلا تضر بها شدة الحزن".

فمضت زوجة الأمير إلى حجرة سلمى، فرأت الباب مغلقاً، وسمعت صوت بكاء ونحيب من الداخل، فقرعت الباب قرعاً خفيفاً، ففتحته سلمى وهي في حالة يرثى لها من الحزن والكآبة، فأخذت زوجة الأمير تعزيها قائلة: "تذكري أنكِ كنت قد يئست من الاجتماع به، فافرضي أنك لم تعلمي بوجوده، وفضلاً عن ذلك فإننا لم نتأكد الخبر ولعله تأخر لسبب لا نعلمه، فاصبري والله مع الصابرين".

فقالت سلمى وقد احمرت عيناها من البكاء: "إني لا أجهل شيئاً عن ذلك يا عزيزتي، ولكني لا أستطيع الصبر على فقده. أما قولك أننا لم نتأكد خبره فأنا لا أشك في أنه — والهفي عليه — قد صارت في عالم الأموات" قالت ذلك وتساقطت العبرات على خديها.

فقالت زوجة الأمير: "كيف يمكننا الجزم بذلك ونحن لم نتلق خبراً صريحاً؟ فعلينا أن نثق بالله ولا نقطع الأمل".

فأمسكت سلمى هنيهةً عن البكاء ثم التفتت إلى زوجة الأمير قائلةً: "أنا أقول ما هو المسوغ لظني الذي ذكرته لك". ثم نهضت إلى خزانة وفتحتها وجاءت منها بكتاب ودفعته إليها فإذا هو كتاب سعيد الذي ذكر فيه أن سيده سافر إلى الأقطار السودانية قنوطاً من الحياة ليأسه من لقائها، وكان يريد الانتحار لكنه آثر أن يموت في ساحة الحرب على أن يقتل نفسه بيده.

فلما أتمت زوجة الأمير تلاوة هذا الكتاب، هزت رأسها أسفاً وسكتت، فقالت لها سلمى: "أتظنين أن من يذهب إلى الحرب راغباً في الموت ينجو وحده من تلك المذبحة؟ وكيف ينجو من غير أن يفر وهو لا يمكن أن يهرب لأنه طالب للموت ساعٍ وراءه فمتى جاءه رحب به؟".

فقالت: "دعي عنك هذه الأوهام، فإن سعيداً لم يمض عليه غير ثلاثة أشهر منذ ذهب إلى الأقطار السودانية، ولو أنه علم بشيء لكتب إلينا به، فلا مسوغ لليأس ولا فائدة منه، وبعد قليل يأتي ولدك فيراك على هذه الحال وهو غير عالم بشيء من قصة أبيه فيزداد قلقه عليك وربما ألجأك إلى اطلاعه على سبب هذا البكاء، فهل تخبرينه بالسبب الحقيقي؟".

فأجابت سلمى: "لا يمكن أن أخبره، وإني أشكر الله تعالى لأني لم أطلعه على هذه القصة من أول الأمر، ويا ليتني لم أطلع عليها أنا أيضاً إذ لا فائدة منها إلا تجديد الأحزان والأكدار".

فنهضت زوجة الأمير وأمسكت بيد سلمى وأنهضتها قائلةً: "هيا بنا يا عزيزتي نذهب إلى الحديقة ترويحاً للنفس لئلا يأتي ولدك غريب ويراك على هذه الحال".

فمسحت سلمى عينيها ولبست ثيابها وخرجت معها إلى الحديقة، فجلست هناك في إيوان (كشك) من خشب حتى آذنت الشمس بالمغيب فنهضتا وعادتا إلى القصر، فإذا بالأمير بشير يتمشى أمام حجرته فلما رآهما أشار إليهما بالمجيء ففعلتا. ثم تفرس في سلمى فإذا هي حزينة كئيبة على الرغم مما كانت تحاول إظهاره من البشاشة واللطف إكراماً له، فقال لها: "يا

سلمى إني مشاركٌ لك في قلقك، ولكني لا أرى مسوغاً للإفراط في ذلك، لأننا لم نعلم الحقيقة بعد، وسأرسل رجلاً خبيراً من خاصتي إلى مصر ليبحث الأمر بنفسه ويأتينا بالخبر اليقين".

فهمت سلمى بتقبيل يده وشكرته على ذلك، ولكن قلبها بقي غير مطمئن.

ومضى رسول الأمير إلى مصر، ثم عاد منها وليس في جعبته أي جديد في هذا الشأن، فكل ما استطاع الوقوف عليه هو أن أمين بك كان في معسكر إسماعيل باشا إلى ساعة المذبحة ثم لم يعد أحد يعلم عنه أي شيء.

فقطعت سلمى الرجاء من حياته، وأخذت تجاهد نفسها لإخفاء حزنها حتى لا يشعر غريب بالأمر، وكانت لا تني تفكر في خادمها سعيد الذي ذهب للبحث عن زوجها وتحدث نفسها قائلة: "ترى ماذا جرى له؟". وكانت تخشى أن يكون قد أصيب بسوء، لأنها كانت تقدر ما أظهر من الصدق والأمانة في خدمتها، وعندما كانت تشتد بها هواجسها كانت تتعزى بترك الأمر لله يدبره بحكمته ورحمته.

- ٩ -

مقتل إسماعيل بن محمد علي باشا

وصل سعيد إلى أسوان بعد مسير ثمانية أيام في الصحراء الشرقية. ويعد يومين آخرين وصل إلى كروسكو. وهناك أعد كل ما يحتاج إليه لعشرة أيام من الماء والطعام، لأن عطمور أبي حمد يقل فيها الماء كثيراً وتكثر فيها الأخطار.

ولاح له أن يصطحب أحداً ممن يعرفون الطريق لئلا يضل فيه، فبحث حتى وجد تجاراً من المصريين والسوريين ذاهبين إلى السودات للاتجار فيه، على أساس أن ربوعه قد فتحت وفيها أفضل أنواع التجارة من العاج والخرتيت وريش النعام والصمغ العربي وما شاكل ذلك. وكانوا قد اصطحبوا معهم خبراء وأعدوا كل ما يحتاجون إليه.

فلما رآهم سعيد حياهم بلغة أهل السودان فردوا عليه التحية، وعلم منهم أنهم قاصدون إلى الخرطوم. فقال: "إني أيضاً قاصدٌ إليها بكتاب إلى إسماعيل باشا بن محمد علي باشا أبيه".

فأبدو رغبتهم في أن يكون معهم، وكان هو أشد رغبة منهم في ذلك. ثم ركب الجميع في الصباح على جمالهم، وهي محملةً أحمالاً مختلفة، فتألفت منهم قافلة، وسارت الجمال التي عليها الأحمال على جانب والتي عليها التجار في جانب ومعهم سعيد. وما زالوا سائرين جميعاً في تلك الصحراء الرملية والشمس قد تكبدت في السماء. فلما ساروا بعض النهار سألهم عن تلك الأحمال التي معهم فقالوا: "هي بضائع من قماش وأدوات، وبعض الحاصلات من الأرز والسكر والقهوة نحملها إلى الأراضي السودانية ونقايض عليها بحاصلات تلك البلاد".

فقال سعيد: "وهل كانت هذه مهنتكم منذ زمنٍ طويل؟".

قال أحدهم: "لا عبد الخير، لأن البلاد السودانية لم تكن التجارة فيها سهلة قبل سنتين، بل كانت محفوفة بالمخاطر والمكاره، وكانت حاصلاتها تأتينا على يد بعض التجار من أهلها. ولكن بعد أن بعث إليها محمد علي باشا وإلينا ولده إسماعيل وفتح جانباً كبيراً منها، دعانا إليه وشجعنا على أن نتوجه إلى تلك الأصقاع، فتمنعنا أولاً ثم قبلنا، فزودنا بخبراء ودربنا على التصرف".

فقال سعيد: "لا شك أن عزيز مصر ساهر على مصلحة بلاده عامل على تقدمها وسعادتها".

فوافقوا على ذلك قائلين: "أنه ما من أحد ينكر فائدة أعماله، ومن كان يتصور إمكان وصول مصر إلى هذه الحالة بعد أن كان المماليك الملاعين يستبدون بها، فنحمد الله على نجاتنا منهم".

فقال سعيد متجاهلاً: "ومن هم هؤلاء المماليك؟".

فقال أحدهم: "هم الذين كانوا حكاماً في مصر قبل محمد علي، وقد كانوا يقتلون وينهبون ويستبدون بغير حساب".

وقال آخر: "نحمد الله على أننا تخلصنا من المماليك الآن، ولكن لا يزال دوننا عراقيل أخرى تقف في سبيل نجاح بلادنا، وأعني الأرناءوط والمغاربة".

فسأله سعيد عن هؤلاء. فقال: "هم جنود كانوا في الحملة التي جاءت لإنقاذ مصر من الفرنسيين، ولما أراد أفندينا تدريبهم على النظام العسكري الحديث امتنعوا وأصروا على الامتناع حتى تهددوا الباشا بالعصيان لأنهم اعتبروا كل ما يخالف عاداتهم القديمة بدعةً".

فقال آخر: "ولكن لا يخفى عليك أن أفندينا عرف كيف يعاملهم ولذلك أرسلهم إلى هذه البلاد المميتة ليفتحوها، ولم يكن قصده إلا أن يشغلهم عن العصيان ولكي يغتنم فرصة غيابهم ويدرب الجنود المصريين كما يشاء".

فقال الأول: "ليس ذلك كل ما أقصده بإرسال الحملة إلى السودان، وإنما قصده الأول على ما علمت البحث عن معادن الذهب في أرض السودان وتوسيع التجارة".

فقال سعيد: "وما معنى تدريب الجند على هذه الصورة الجديدة، وما الفائدة منه؟"

فقال: "الفائدة منه عظيمة، لأن المائة من الجند المنظم تغلب ألفاً من الجند غير المنظم، وهل تظن أن الجيش الفرنسي الذي جاءنا منذ حوالي عشرين سنةً لو لم يكن منظماً على النمط الحديث كان يمكنه أن يتغلب على فرسان المماليك الذين لا يبالون بالموت؟".

فقال الجميع: "هذا صحيح".

فاستأنف الرجل كلامه قائلاً: "ولأفندينا مقاصد أخرى كلٌ منا يعرفها، وإن يكن هو لم يطلع أحداً عليها، والكتاب يقرأ من عنوانه".

فقال سعيد: "وما هي مقاصده؟".

فقال: "إن أفندينا أصبح بعد تربعه في دست الولاية لا يقنع بحكم مصر، ولا سيما بعد أن اختبر جنوده وأولاده في محاربة الوهابيين والسودانيين

وغيرهم. ويقال أن في نيته افتتاح بلاد الشام وما وراءها، وأنه إنما يدرب الجند لهذه الغاية".

فقاطعه زميلٌ له قائلاً: "لا يبعد ذلك أن يكون صواباً، وإلا فما معنى زيارة الأمير بشير الشهابي أمير لبنان لمصر والمفاوضة معه سراً؟".

فقاطعهم أحد الرفاق قائلاً: "وما لنا ولهذه الظنون، إن ذلك كله رجم بالغيب، ولا يعلم الغيب إلا الله. أما الشيء الذي لا شك فيه فهو أن أفندينا محمد علي دائم السعي لتوطيد دعائم الأمن وافتتاح المدارس والمعامل وغير ذلك من أسباب الفلاح، وقد علمت أنه بعث إلى فرنسا يستقدم طبيباً ماهراً لافتتاح مدرسة طبية في مصر، وهذه مأثرة عظمى".

وبينما هم في الحديث لاح لهم غبار عن بعد، ثم ما لبث قليلاً حتى انكشف عن هجين فوقه رجل ملثم بكوفية، ويظهر من هيئته أنه من أهل السودان، فلما اقترب منهم أمسك بزمام الهجين وحياهم، وعرفوا أنه من ضباط إسماعيل باشا فسألوه عن سبب مجيئه وحده في تلك الصحراء فقال: "إني آتٍ من الخرطوم قاصداً إلى القاهرة بكتب إلى العزيز من ولده إسماعيل باشا".

فسألوه عن الأحوال فقال: "إن جنودنا ساروا حتى افتتحوا الخرطوم وسنار وخضعت لهم الشائقية، ثم سار إسماعيل باشا بجنوده حتى أتى جبل فزغل فاكتشف معادن الذهب، غير أن الوباء فشا في العسكر فاضطر إلى العودة، وقد تركته في منطقة الخرطوم".

فقال سعيد: "هل وصلت إليكم حملة الأرناءوط والمغاربة التي توجهت مؤخراً لإمدادكم؟".

قال: "نعم وصلت منذ حين، وهي الآن قد اختلطت بجنود إسماعيل باشا لأن كثيراً من رجالها قد قتلوا في الحروب فألحق من بقي منهم بجيش إسماعيل، وهم قادمون إلى جهات شندي لجمع الرجال وجباية الأموال بعد أن تركوا أحمد بك الدفتردار بمن بقي من الجند في سنار".

وأحب سعيد أن يسأله سؤالاً آخر، فاعتذر الضابط بعدم إمكانه التأخر أكثر

من ذلك خوفاً من فوات الوقت، وودعهم مطلقاً لهجينه العنان واضطرب سعيد من جراء ذلك الخبر، خوفاً على سيده أن يكون ممن قتلوا، وبقي سائراً مدة طويلة وهو صامت لا ينطق ببنت شفة، فأدرك رفاقه ذلك فسألوه عن سبب سكوته فقال: "إني أتأمل في هذه الصحراء الواسعة، فهي مع خلوها من الماء نشاهد فيها نباتات وأشجاراً كثيرة كأنها في بلاد يرويها ماء النيل".

فقال أحدهم: "إن هذه الأشجار والأعشاب ترتوي من ماء المطر زمن الشتاء وتبقى في سائر الفصول فترعاها الجمال".

فسكت سعيد، وعاودته هواجسه فتخيل سيده تارةً مصاباً بطعنة، وتارةً قتيلاً أو أسيراً، فاسودت الدنيا في عينيه، واغرورقتا بالدموع.

وفيما هو في هذه التصورات وقفت القافلة للغداء والاستراحة، لأن الحر كان قد اشتدت وطأته ولم يعد المسير ممكناً. فوقف سعيد متردداً بين أن يرافق القافلة كل الطريق أو يتركها ويسير على حدة خوفاً من الإبطاء، لأن التجار لا يمكنهم الإسراع في سيرهم وجمالهم مثقلة في الأحمال وهي ليست من الجمال السريعة.

فجلس للاستراحة وتناول الطعام، ثم شرب جرعةً من الماء الذي يحمله معه، ورأى رفاقه قد توسدوا للقيلولة، فلم يستطع التوسد مثلهم لشدة قلقه، وتصور أن تأخره دقيقة واحدة قد يترتب عليه موت سيده، فهب واقفاً وركب هجينه وودع رفاقه معتذراً بأنه لا يمكنه الإبطاء في الطريق مثلهم، ثم أطلق لهجينه العنان في الصحراء ومضى لا يلوي على شيء.

وما زال سعيد منطلقاً بهجينه حتى ولى النهار، فاستراح قليلاً ثم واصل السير في ضوء القمر إلى أن شاهد خياماً عن بعد فيها بعض العربان العبابدة، فاقترب من المحلة فناداه رجل قائلاً بلغة تلك القبيلة: "مين الزول" أي من الرجل.

فأجاب سعيد قائلاً: "موحد" أي يشهد الله أن لا إله إلا الله.

فظنوه مسلماً من قبيلتهم فقالوا: "يا هلا بالزول". أي أهلاً بالرجل.

فتقدم سعيد وسلم عليهم بسلامهم المعتاد، فسألوه عن قبيلته فقال: "إني من قبيلة الشائقية".

ولما أراد السفر في الصباح سأله شيخ تلك القبيلة عن جهة مسيره بقوله: "يا زول أنت مبحر وإلا مقبل". أي هل أنت شمالاً أم جنوباً.

فقال: "لا والله مقبل يا زول".

فقال له: "تكسو شونو" أي عن أي شيء تبحث.

فقال سعيد: "أكوس سيداً لي مرق مني في الليل الغبر" أي أبحث عن سيدي الذي تاه مني في الليل الماضي.

وحذراً من أن يمل القارئ لغة هؤلاء الأقوام ننقل كلام الرجلين إلى اللغة العربية السليمة.

قال الشيخ لسعيد : "هل تريد أن أزودك ببعض رجالي يساعدونك في البحث عن سيدك".

فقال سعيد: "إن ذلك غاية مرادي ولكنني أخشى ان يكون سيدي قد سار إلى أبي حمد أي مسافة ستة أو سبعة أيام من هنا ولا يليق بي أن أتعب رجالك بهذا المقدار".

فقال الشيخ: "مرحباً بك يا وجه الخير، فإن أسيادك من أصحاب المروءة ولا يليق بي أن أتركك ما لم أرسل معك بعض رجالي".

ثم نادى قائلاً: "تيراب". فجاء بدوي دقيق البنية حاد العينين أسودهما، صغير الأنف، أسود الشعر خفيفه، صغير الفم والأذن، منتظم الأسنان أبيضها، دقيق الساقين. ومع رقة جسمه تلوح عليه مظاهر القوة والنشاط وسرعة الحركة.

فلما وقف بين يدي الشيخ قال له: "سر يا بني مع هذا الرجل لتبحث معه عن سيده ومتى التقيتما به فأوصلهما إلى قبيلتهما".

فقال تيراب: "سمعاً وطاعةً". وركب هجينه، وسار في ركابه اثنان من

العبيد، ثم سار الجميع جنوباً وقد سر سعيد لمرافقة هذا البدوي له لأنه أصبح في مأمن من أن يضل الطريق، ولكنه خشي أن يرافقه يوماً ثم يعود، فأخذ يحتال لإبقائه معه إلى آخر الطريق فافتتح الحديث قائلاً: "ما هو اسم شيخكم يا تيراب؟".

قال: "اسمه الشيخ أبو سرحان، وهو أبي. لكن كيف تاه منك سيدك؟".

فقال سعيد: "إن سيدي هو ابن الأمير ود علي، وهو شاب يحب الفروسية، ولما سمع بأن الجنود المصريين قادمون من الخرطوم إلى شندي، أحب أن يذهب للانضمام إلى بعض القبائل هناك لينتقم من إسماعيل باشا، لأنه قتل صديقاً له في بعض المواقع. ولا شك أن هذا القصد ناتج عن قلة التبصر وكثرة الجهالة، وقد حاول أبوه مراراً إقناعه بالعدول عن ذلك فلم يقتنع، وخرج صباح أمس دون أن يعلم به أحد ولم يرجع بعد، فبعثني أبوه للبحث عنه وأنا أظن أنه سار إلى أبي حمد قاصداً المتمة"

فقال تيراب: "إذن خير لنا أن نتوجه تواً إلى أبي حمد".

فقال سعيد: "هذا هو الأنسب على ما أظن". وكان ذلك غاية مني سعيد فإنه أتى بتلك القصة لكي يسمع ذلك الرأي.

ثم مضى الاثنان يجدان السير والعبدان في ركابهما حتى وصلا بعد ثلاثة أيام إلى محطة مرات، وهي المحطة المتوسطة في ذلك العطمور، وفيها آبار الماء غير العذب ينـــزل بها المسافرون للاستقاء وملء القرب لما بقي من الطريق إلى أبي حمد. فاستراحوا هناك ريثما أكلوا وشربوا وملأوا قربهم، ثم استأنفوا رحلتهم.

وبعد بضعة أيام وصلوا إلى محلة أبي حمد على الشاطئ الشرقي للنيل آخر ذلك العطمور.

فقال تيراب: "يلوح لي أن ابن سيدك قد ذهب إلى المتمة، لأننا لم نقف له على أثر".

فقال سعيد: "نعم، أكبر الظن أنه سار إلى هناك، وإلا كنا التقينا به أو سمعنا شيئاً عنه. وعلى كل حال أرجو الآن أن تعود إلى أبيك وتقدم له عني وعن سيدي مزيد الشكر والثناء على معروفه، ومتى رجعت أنا إلى القبيلة فسأخبر سيدي الأمير الكبير بجميل صنعكم".

وألح سعيد على تيراب في أن يرجع، خوفاً من انكشاف أمره له إذ وصل معه إلى المتمة، فودعه تيراب وعاد بخادميه إلى أبيه، أما سعيد فإنه عبر النيل إلى البر الغربي ولم يعد أمامه إلى المتمة إلا عطمور واحد يجب أن يسير فيه مدة قدر ما سار في عطمور أبي حمد، غير أن الماء هنا موجود في آبار على الطريق أكثر مما في ذاك.

★★★

ملأ سعيد قربتيه من ماء النيل، ثم ركب هجينه قاصداً المتمة.

وبعد مسيرة بضعة أيام وصل إلى آبار حكدول في منتصف ذلك الطريق، فإذا هو مكان جبلي تجمعت فيه مياه غزيرة من الأمطار، فشرب وسقى جمله وملأ قربتيه، وبات هناك ليلة ثم سار في الصباح فمر بآبار أبي طليح بعد يومين، وفي اليوم الثالث أشرف على المتمة، وهي بلدة واقعة على ضفة النيل الغربية مقابل بلدة شندي، وكانت هذه أكثر عمراناً من تلك. وبينها مجرى النيل.

فلما وصل إلى المدينة دخلها كأنه واحدٌ من أهلها، وكان ذلك اليوم يوم الثلاثاء وهو يوم سوق المتمة، فوجد الناس مجتمعين في ساحة هناك يبيعون ويشترون، وفيهم الجزارون قد علقوا بقرةً أو جملاً مذبوحتَين في شجرة وراحوا يبيعون من لحمها لمن يشاء بغير وزن، وفيهم باعة التبغ السوداني واللبن والزيت والتمر وسائر لوازم البيوت.

والعادة في تلك البلاد أنهم يجعلون لكل بلدة يومين في كل أسبوع يقيمون فيها سوقاً عامةً يأتي إليها أهل البلدة وما جاورها من القرى يبيعون ويشترون ويقايضون. وكانت سوق المتمة في يومي الثلاثاء والجمعة. فالراعي يعطي الفلاح غنماً ويأخذ بدلاً منها حنطةً أو تيناً، ويعطي زبدةً ويأخذ

بدلاً منها تـــمراً أو تبغاً. والحائك يبادل بمنسوجاته مع التاجر القادم من المدن بالسكر والقهوة والأرز وما شاكل ذلك.

وليست فائدة تلك السوق مقصورة على التجارة فقط، ولكنها كذلك وسيلة للمخابرة والمداولة فيما هو جار من الحوادث،فهم يغتنمون الفرصة في أيام السوق لمطالعة الأخبار.

فدخل سعيد بينهم على أنه من أهل القرى المجاورة، ودخل معهم في الأحاديث فسأل عن حالة الجنود المصريين فقيل له: "إنهم دوخوا البلاد وعما قليل يصلون إلى شندي لجباية الأموال".

وفي اليوم الثاني قيل له: "إنهم على مقربة من شندي. وفي عصر ذلك اليوم وصل إسماعيل باشا ورجاله إلى شندي فنصبوا خيامهم ونزل إسماعيل في قصر أعد لنزوله بالقرب من شجرة كبيرة خارج البلدة، فجاء الناس للعساكر بما يحتاجون إليه من المأكل والمشرب، وجاء كثيرون من أهالي المتمة إلى شندي لمشاهدة العساكر المصريين، فنزل سعيد في أحد القوارب حتى أتى معسكر إسماعيل وجعل ينظر يميناً وشمالاً ويتأمل في وجوه ضباطه وعساكره لعله يجد سيده بينهم، لكنه خشي أن يرتابوا في أمره، فجاء بطبق جعل فيه بيضاً وتمراً ومضى بين الخيام متظاهراً بأنه أحد الباعة.

وفيما هو في ذلك سمع لغط الناس، ثم رأى الملك النمر ملك شندي من قبيلة الشائقية قد جاء برجاله لملاقاة إسماعيل باشا، وأخذ الناس يهرعون ليشاهدوا تلك المقابلة، فسار سعيد في جملتهم. وكان إسماعيل في لباسه العسكري وطربوشه التونسي وسراويل الأتراك، متكأً خارج القصر على مقعد سوداني (عنقريب) فوقه بساط عجمي، وفي يده غليون يدخن فيه، وحوله ضباطه ورجال معيته بين جالس وواقف.

ثم أقبل الملك النمر فإذا به شيخ متوسط القامة، خفيف شعر اللحية، أسمر اللون، كبير العينين حادهما، عليه القفطان الحريري وفوقه العباءة البيضاء،

وعلى رأسه العمامة، وبيده الغليون، وفي خدمته بضعة رجال واحد يحمل له سلاحه من رمح وسيف وحراب، وآخر ينقل له الغليون والتبغ، وهكذا.

ولما اقترب من معسكر إسماعيل أعطى غليونه لخادمه، وأمر رجاله أن يلبثوا بعيدين، ثم تقدم هو احتراماً للباشا، فلما دنا منه حياه بالتحية المعتادة حانياً رأسه ولمس يد الباشا وقبلها، ثم وقف منتصباً، كل ذلك وإسماعيل متكئ والغليون في يده لا يبدي حراكاً احتقاراً له، وبعد مدة أشار إليه فجلس على الأرض. ثم أخذ الملك يرحب بإسماعيل ويبدي له الخضوع وهو لا يزداد إلا احتقاراً له، ثم التفت إليه قائلاً له: "إني جئت إليك لجباية الأموال الأميرية وجمع الرجال، فيجب عليك أن تأتيني بما يملأ قاربي هذا من الفضة، وتجمع لي ألفين من الرجال خلال خمسة أيام".

فوقف الرجل النمر مسترحماً وقال: "حيى الله الباشا، من أين لنا هذا القدر من الفضة ونحن قومٌ مساكين فقراء؟".

فاستوى إسماعيل على متكئه ونظر إلى الملك النمر عابساً وقال: "لقد أبلغتك أمري فلا تجادلني".

فكرر الملك النمر اعتذاره بأنه لا قبل له بجمع هذا المبلغ، فقال إسماعيل باشا: "حسناً نجعله عشرين ألف ريال".

فشكا الملك النمر من قصر المدة ذاكراً أنها لا تكفي لجمع المطلوب من المال والرجال فقذفه إسماعيل بأنبوبة غليونه في وجهه، فاستشاط الملك النمر غيظاً ولكنه أظهر الخضوع وأضمر الشر.

أما سعيد فلم يكن هذا المشهد ليشغله عن سيده، لكنه لم يستطيع التقدم لمجلس الباشا حيث يجتمع ضباطه ليبحث عن سيده بينهم، لأن العساكر كانوا يمنعون الناس من الاقتراب إلى مجلس الباشا، فلما رجع الملك النمر إلى المدينة كانت الشمس قد مالت إلى الغروب فخاف سعيد ألا يسمح لأحد من أهل المدينة بالبقاء في المعسكر فعاد إلى شندي في معية الملك النمر، ولم يكن أحد يعرف حقيقته مطلقاً، بل كان الجميع يخاطبونه ويحدثونه على أنه

من أهل القرى المجاورة، وقد عزم أن يبكر في الصباح لاستطلاع أمر سيده في معسكر إسماعيل باشا.

★★★

ما كاد الملك النمر يصل إلى بيته حتى جمع إليه بعض رجاله وأخذ يتباحث معهم وعيناه تقدحان الشرر من شدة الغيظ، فدخل سعيد متنكراً فوجده قد وقف بينهم وخاطبهم قائلاً: "يا معشر الشائقية، ها قد رأيتم ما أصاب ملككم النمر في هذا اليوم من الإهانة بغير ذنب، وأنتم تعلمون أن الإهانة لا تطاق، فهل تحالفونني إذا أردت الانتقام من الذي أهانني؟"

فأجابه الجميع: "لا". فسكت ثم أشار إلى بعض خاصته فتبعوه إلى حجرةٍ أغلقوها دونهم وأخذوا في تدبير وسيلة للانتقام.

واعتزم سعيد أن يذهب في الصباح التالي إلى إسماعيل باشا ليحذره من الملك النمر وذهب يطلب مكاناً يبيت فيه تلك الليلة.

وفيما هو سائر رأى الناس حاملين أكياساً من التبغ إلى معسكر إسماعيل باشا، فظنه علفاً للجمال فلم يبال، ثم رأى الناس يتقاطرون نحو المعسكر فقال في نفسه: "يحسن أن أذهب معهم لعلي أقف على أثر لسيدي". فسار حتى وصل إلى المعسكر فإذا بالملك النمر والباشا وضباطه قد جلسوا في بقعةٍ وسط المعسكر يتمازحون ويضحكون، وأمامهم حلقة من الرجال السودانيين ينقرون بالدفوف ويرقصون الرقصة السودانية، وقد أدار الملك النمر ضرباً من الشراب يكثر تعاطيه في السودان يقال له: "المريسة" ويسميه أهل مصر (البوظة). وهو يصنع من منقوع الذرة ويشبه بطعمه وخواصه الجعة (البيرة).

وظل الملك النمر يعطي إسماعيل باشا وأهل مجلسه وهم يشربون حتى مضى معظم الليل، كل ذلك وسعيد شاخص ينظر إلى الناس ويتأمل في وجوههم فوقع نظره على رجلٍ مقطب الوجه جالس في مجلس الباشا لم يكن يشرب من ذلك الشراب ولا يكترث لتلك الألعاب خلافاً لرفاقه فإنهم كانوا

يقهقهون ويصرخون وكذلك الباشا.

فتأمل سعيد في ذلك الوجه فإذا عليه ملامح الكبر، أكثر مما يعهده في سيده، وهو مطرقٌ في الأرض وبيده غليون يدخن فيه وينفخ متأففاً، ثم خطر ببال سعيد ما علمه من الأمير بشير من أن سيده شاب قبل الأوان، فترجح عنده أن ذلك الضابط المطرق هو سيده، فكاد يطير من الفرح، وهم بأن يناديه من بين الجماهير ولكنه أمسك خوفاً من أن يقع عليه غضب إسماعيل باشا، إذ لم يكن قد نسي ما أصاب الملك النمر من الإهانة على يده في النهار.

ولكن عواطفه لم تكن تطاوعه فصار يرقص فرحاً. والناظر إليه يظنه يرقص مع الراقصين، فأخذوا يضحكون عليه، ثم دخل في زمرة الراقصين لكي يقترب من سيده، فأخذ يتقرب شيئاً فشيئاً وجميع من كان في مجلس الباشا يترنحون وقد لعبت رؤوسهم الخمر فصاروا يرقصون أيضاً.

أما سيده فكان لا يزال مطرقاً عابساً لا يبدي حراكاً إلا بالتدخين وكلما فرغ من غليونه زوده بتبغ جديد. ثم رآه سعيد وقد نهض ودار من وراء مقعد إسماعيل، فظن أنه ذاهب في حاجة ولا يلبث قليلاً حتى يعود، ولم يكن يمكنه الوصول إليه لتوسط مقعد الباشا وحاشيته بينهما، فتربص في انتظار عودته، فطال انتظاره حتى آخر الليل دون أن يعود سيده. وكان إسماعيل باشا ورجاله قد تعبوا فانصرف كل منهم إلى محل رقاده، وسار إسماعيل إلى قصره كل ذلك وسعيد يبحث هنا وهناك عن سيده وفيما هو كذلك رأى اللهب يتقد والدخان يتصاعد من جهة قصر إسماعيل وما جاوره من الخيام، فأدرك أن النار اشتعلت بالتبن الذي كانوا قد جمعوه في مساء ذلك اليوم، ولم يكن سعيد قد فطن إلى المكيدة إلا في هذه اللحظة، فخاف على سيده أن يذهب فريسة النار، وسارع إلى مكان اللهب يبحث عنه، ولما لم يجده جعل يطوف كالمجنون وينادي بعبارات مختلفة يقولها على غير هدى. وكان يرى بعينه اشتعال اللهب من جهة وسيوف الشائقية وحرابهم من جهة أخرى وهي تعمل في رجال إسماعيل، فسار نحو النيران وقد شهر السيف في يده إيهاماً

لرجال الملك النمر أنه منهم. وفيما هو بقرب اللهب رأى سيده خارجاً من خيمته مسرعاً نحو النار كأنه يريد أن يلقي بنفسه عليها تخلصاً من الحياة، فناداه سعيد: "قف يا سيدي لا تقتل نفسك إن سيدتي سلمى حية". وكان أمين بك قد عاين سعيداً هاجماً عليه في زي السودانيين فظنه منهم فضربه ضربةً بالسيف على عنقه فسقط لا يبدي حراكاً وسمعه يقول: "قتلتني يا سيدي أنا عبدك سعيد".

فأراد العودة إليه ليتحقق الأمر فإذا بجماعة كبيرة هاجمون عليه بالحراب والسيوف والبنادق وكانت الحياة قد عزت عليه لما سمع ببقاء امرأته في عداد الأحياء فخاف إذا ثبت أمام الهاجمين أن تعود العائدة عليه فلا يعود إلى امرأته فطلب الفرار في عرض الصحراء حتى وصل إلى مأمن، فجلس يفكر فيما سمعه ورآه، وهو يحسبه أضغاث أحلام، وندم على فراره بغير أن يتحقق حال سعيد فحدثته نفسه أن يعود إلى مكان الوقعة لعله يستطلع شيئاً من أخباره، لكنه رأى في رجوعه خطراً عليه وهو مع ذلك لا يأمل أن يستفيد شيئاً لأن ضربته كانت قاتلة وتذكر أن سعيداً قال له: "قتلتني يا سيدي". فتأسف كثيراً ولكنه عاد فتذكر أن سعيداً لم يقل له أين امرأته فازداد أسفاً. ولما يئس من أمر سعيد هام على وجهه ليبحث عن زوجته.

— ١٠ —

حصار عكا

يئست سلمى أو (جميلة) من وجود زوجها، بعد أن مرت عليها سبع سنوات لم تسمع خلالها عنه أي خبر، فزال من ذهنها أمل الاجتماع به.

وكان غريب قد بلغ الحادية والعشرين من عمره، وسافر مع الأمير بشير مرات، وحضر كثيراً من الوقائع الحربية أظهر فيها بسالةً عظيمةً حتى أجمع الجميع على محبته. فكان ذلك أكبر تعزية لوالدته.

ثم رأت أن تزوجه، فاختارت له فتاة بارعة الجمال كاملة الصفات من

العشيرة الشهابية، ورأت أن تستطلع رأيه، ففي ليلة من ليالي شهر تشرين الأول (نوفمبر) سنة ١٨٣١ دعته إلى حجرتها، وأسرت إليه بما اعتزمته، وامتدحت تلك الفتاة ما استطاعت، فقال لها: "إني أحب كل ما تحبينه، ومع أني لا أعرف تلك الفتاة فأن واثق بأنها ستكون موافقةً لي، ولكنني أرى أن هذا الوقت ليس وقت زواج".

فقالت: "وما المانع؟". فقال: "إن أبي الآن (يقصد الأمير بشيراً مشغول باضطراب سياسي، فلا ينبغي مفاتحته في مثل هذا الأمر الآن، وعلينا إرجاؤه إلى فرصة أخرى".

فقالت سلمى: "كيف ذلك يا ولدي، وما الداعي لاضطراب الأمير، أخبرني".

فقال: "أنت تعلمين أن إمارة أبي على لبنان تابعة ولاية عبد الله باشا والي عكا، ولا يخفى عليك أن أبي لما توجه في المرة الماضية إلى مصر كنت أنا برفقته كان غرضه من ذلك توسيط عزيز مصر في التماس العفو من مولانا السلطان عبد الله باشا المذكور، وقد ظفر له بذلك العفو وعادت ولاية عكا إليه بعد أن كادت تخرج من يده. ولكنه بدلاً من أن يحفظ هذا المعروف لأبي ومحمد علي باشا تنكر لهما، فأصبح أبي ناقماً عليه ولكنه لا يستطيع إظهار ذلك لأنه تحت ولايته. أما محمد علي باشا والي مصر فلم يمكنه إمساك غضبه لأسباب أوجبت زيادة حقده عليه، فبعث ابنه إبراهيم باشا في حملة من الرجال لافتتاح عكا وقهر عبد الله باشا. وقد كتب هذا إلى أبي يطلب إليه أن يحشد الرجال ويأتي لنجدته في عكا وأنت تعلمين أنه لا يمكنه مخالفة الأوامر، فبعث أبي إلى جميع المقاطعات لجمع الرجال والتأهب للسفر. وفيما هو في ذلك ورد عليه كتاب من إبراهيم باشا من عكا يستقدمه إليه فوقع أبي في حيرة، ولم يمكنه إجابة طلب إبراهيم باشا خوفاً من غضب عبد الله باشا، في حين أنه وعد من قبل بمساعدة إبراهيم باشا عند قدومه إلى البلاد السورية، ولذلك ترينه في قلقٍ تردد، لا يمكن معهما مخاطبته في شأن الزواج الآن".

فاضطربت جميلة لذلك الخبر وقالت: "وماذا ترى الأمير صانعاً في هذه المشكلة؟".

فقال: "أرجح أنه يجيب طلب إبراهيم باشا، وقد يسافر غداً ومعه حاشيته إلى عكا لهذا الغرض، ولا بد لي طبعاً من التوجه برفقته".

فصاحت قائلة: "لا يا ولدي، ما لك ولهذه المخاطرة؟".

فقاطعها غريب قائلاً: "لا تجزعي يا والدتي، وإذا كنت لم أعهد فيك مثل هذا الخوف علي وأنا صبيٌّ ناشئ، فأولى لك الآن ألا تجزعي لسفري وقد صرت رجلاً".

فقالت: "إن ذهابك إلى مصر أول مرة لم يكن للحرب، وقد كفاني ما قاسيت على أثر ذلك السفر". قالت ذلكَ ولم تقدر أن تمسك نفسها عن البكاء لتذكرها حكاية زوجها.

فتعجب غريب لذلك البكاء وقال:"ما الداعي يا والدتي إلى هذا البكاء الآن؟".

قالت: "ليس هناك داعٍ يا حبيبـــي سوى أني تذكرت الخطر الذي وقعت فيه هناك بسبب اعتداء اللصوص عليك".

ثم رأت أنها يجب ألا تظهر الجزع أمامه، فندمت على ما فرط منها وقالت: "لا تظن أني أخاف عليك من الحرب، فإن الرجال خلقوا لها، والأعمار بيد الله، وأنا لا أخاف عليك من الحرب ولا سيما أنك ذاهب في جماعة من الأبطال وفيهم أبوك البطل المغوار الذي تهابه الأسود، فإذا لم يكن بد مِن السفر ففي حراسة الله، ولكني أوصيك وصيةً واحدة أرجو ألا تنساها".

قال غريب: "مرني بما شئت فأنا طوع أمرك".

قالت: "عليك يا ولدي بتقوى الله والاتكال عليه في السراء والضراء".

ثم أخرجت بطاقة صغيرة كتبت فيها بضع كلمات، وطوتها ودفعتها إليه

قائلةً: "هذه البطاقة كتبت لك فيها آيةً ذهبيةً، ولا تفتحها إلا وأنت في أشد الضيق".

فقبل البطاقة ووضعها في جيبه وقد اغرورقت عيناه بالدموع، ثم تجلد وأمسك نفسك حتى لا يبدو عليه الجزع فيؤثر ذلك في نفس والدته.

وفي صباح الغد أمر الأمير بشير بالاستعداد للسفر وبأن يكون غريب في جملة المسافرين لأنه كان يحبه حباً عظيماً لما رأى فيه من النخوة والشهامة والهمة والشجاعة، فذهب إلىوالدته ليودعها فقبلته وشجعته ، لكن قلبها كاد يقطر دماً على فراقه.

ثم ركب الجميع وساروا قاصدين عكا، وفيما هم في الطريق لقيهم فارس بيده كتاب إلى الأمير، ففضه فإذا به من عزيز مصر يتهدده ويتوعده بالانتقام إن لم يسارع إلى عكا لمعاضدة ولده إبراهيم، ومما جاء في هذا الكتاب: "إن ولدي إبراهيم كتب إلي أنه دعاكم إلى صحراء عكا ، لم تحضروا، فإما أن تفعلوا وإلا فإننا نخرب مساكنكم ونغرس في مكانها زيوتاً".

فطوى الأمير الكتاب وما زال سائراً حتى أتى صحراء عكا شمالي حيفا وجبل الكرمل حيث معسكر إبراهيم باشا، فخرج لملاقاته بعض الضباط والجنود وحيوه بالموسيقى وإطلاق البارود، ومن بينهم: "مصطفى بربر، وحنا البحري رئيس الكتبة ثم دخلوا به المعسكر في موكبٍ عظيم، وكان ذلك المعسكر هو الذي نزل به بونابرت قبل حوالي ثلاثٍ وثلاثين سنةً، فنزل الأمير ومن معه في خيمةٍ خاصةٍ قرب خيمة إبراهيم باشا.

★★★

كانت عكا محصنة تحصيناً منيعاً، وقد دافع جندها دفاعاً شديداً حتى امتنعت على إبراهيم باشا أكثر من خمسة أشهر كانت الحرب في أثنائها سجالاً بين الفريقين.

وكان غريب يغتنم فرص الهدنة ويذهب للصيد في جوار تلك الأماكن، وكان في بعض الأحيان يصل إلى سهول (شفا عمر) فيصطاد من غزلانها

وحجلاتها ما شاء.

وكان جنود إبراهيم باشا مدربين على النظام الحديث الذي وضعه بونابرت، وبينهم كثير من الأتراك والأرناءوط والمغاربة، من الجنود القدماء. وكان الضباط يخرجون في أوقات الهدنة للصيد والنزهة.

ففي صباح يوم من أيام شهر ديسمبر سنة ١٨٣١ خرج غريب من خيمة الأمير بشير مبكراً، وكان البرد قارساً فالتف بثيابه وصعد إلى مكان عال وأخذ يتأمل الصحراء عند سفح ذلك الجبل، وقد أصبحت بعد أن تساقطت عليها الأمطار في الليل كأنها مغسولة، فصحا الجو وصفت السماء وأشرقت الشمس على تلك الأنحاء فانعكست أشعتها على سطح البحر المتوسط فتلون سطحه ألواناً بديعةً. ولم يكن يتخلل السكون السائد إلا زقزقة الطيور وقد خرجت من أعشاشها فيحييها البحر بتلاطم الأمواج.

فسر غريب بذلك المنظر كثيراً، واشتاقت نفسه إلى الركوب والطواف في تلك الجهات المجاورة والركوب يحلو في الصحراء الرملية، إذ يبدو الرمل أجمل ما يكون بعد المطر — فركب جواده ومضى به دون أن يخبر أحداً بذلك. على أن بعض الجند رأوه عرفوه. فلما خرج من المعسكر أوغل في تلك الصحراء شرقاً كأنه يريد أن يركض الفرس فعرج شمالاً إزاء باب عكا وأخذ يتأمل أسوار تلك المدينة أو القلعة وحصونها وخنادقها. ثم رأى أمامه آثار قناطر قديمة كان الماء يجري فيها إلى عكا من مكان يبعد مسيرة أربع ساعات. وفيما هو في ذلك عرج به جواده نحو المدينة وهو لا يدري فما أحس إلا وهو بالقرب من بابها الشرقي ولم ينتبه إلا عندما سمع إطلاق الرصاص عليه، فأدار شكيمة جواده طالباً الصحراء تخلصاً من الموت، لكنه لم يلبث قليلاً حتى أصيب جواده برصاصة أوقعته صريعاً، فأراد الفرار على قدميه، ولكن بعض حراس عكا خرجوا إليه بأسلحتهم فأدركوه قبل أن يتمكن من إخراج رجله من الركاب، وأراد الدفاع فلم يستطع إلى ذلك

سبيلاً، فقبضوا عليه وساقوه إلى المدينة فأدخلوه من ذلك الباب وهو كأنه في حلم فدخل معهم وهو فيما تقدم ذكره من اللباس الفاخر، وقد أرسل كوفيته على كتفيه، وجمدانه المزركش بالقصب يسطع فوق قبائه الحريري صنع دمشق وقد تقلد السيف وتمنطق بالطبنجات والخنجر، ومشيته تدل على أنه ليس من عامة الناس.

وكان أهل عكا ينظرون إلى الشاب الأسير نظرة التعجب يتساءلون فيما بينهم عمن عسى أن يكون. أما هو فبقي مشياً غير مبالٍ كأنما هو ذاهبٌ إلى بيته حتى أتو به إلى القلعة ودخلوا به على عبد الله باشا، فإذا هو جالس على مقعد يدخن الشبق وهو مقطب الوجه، وكان ربعة أشمط الشعر عريض اللحية، وعلى رأسه الطربوش العثماني. وبين يديه رجال دولته، ويظهر من وجهه أنه في حال ارتباك واضطراب وغضب شديد.

فلما دخل غريب الغرفة عرفه عبد الله باشا فناداه منتهراً: "ألست ابن الأمير بشير خائن الدولة والأمة؟".

فقال غريب: "نعم إنني إبنه، ولكنني لا أرى مسوغاً لما وصفته به يا سعادة الوالي، ولعلك إذا التقيت بأبي يوماً تعرف حقيقة الأمر".

فقال عبد الله باشا: "لقد بعثت إليه لكي يقدم إلي برجاله فانحاز إلى عدونا، فإذا ظفرت به فلأعلمنه الطاعة والأمانة، وستبقى أنت عندنا هنا حتى يقضي الله بيننا".

فقال غريب: "لا داعي للتهديد والوعيد، وإن ما نسبته إلى والدي يعد إجحافاً منك بحقه، فإنه لم يقصر في خدمة مصلحتك. ألم يكن هو الذي أنقذك من غضب الدولة، وكم ساعدك في إخضاع رعيتك؟ أما انحيازه الآن إلى الجنود المصريين فلعل له عذراً يعلمه ولا أعلمه".

فقاطعه عبد الله باشا: "لا عذر له في خيانة دولته، وقد ذكرت لك أني سأعلمه الأمانة إن ظفرت به، وما أنا بناقم على إبراهيم بقدر نقمتي عليه، فما هكذا تكون الأمانة والشهامة".

فقال غريب: "ليسمح لي سعادة الوالي أن أرد على هذا الاتهام لأبرئ أبي منه. على أني موقن بأنكما إذا اجتمعتما وتفاوضتما، فستعلم أن الخيانة ليست من طبع الأمير بشير".

فابتدره الباشا منتهراً وهم يهم بالوقوف، ثم نادى: "سالم آغا". فلما جاء قال له: "خذ هذا إلى السجن مغلولاً". فتقدم سالم آغا وهو بملابس الضباط، طويل القامة جميل المنظر في نحو الثلاثين من عمره أزرق العينين أشقر الشعر، وفي يده سيف مسلول وبجانبه جنديان بالبنادق، وأشار إلى غريب أن يمشي فامتنع غريب وإلتفت إلى الوالي قائلاً وهو ينتفض من شدة التأثر: "أهكذا تكبلون أبناء الأمراء وتقودونهم إلى السجن مهانين؟ إني لا أنتقل من هنا حتى تفك أغلالي فأسير بنفسي إلى حيث تشاءون".

فصاح عبد الله باشا بأعلى صوته: "يا للجرأة، أتعارض أمري وتمتنع عن الذهاب، خذوه حالاً من أمامي وإلا قطعت رأسه بهذا السيف".

فتقدم غريب دون أن يرتعد أو يؤثر فيه كلام الوالي وقال: "أتظن أنك تروعني بهذا التهديد؟ وهل نسيت قول القائل:

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تموت جباناً

" لا يا سيدي، لا أبالي بالتهديد والوعيد ما دمت بريئاً، ولكن من العار عليك أن تجرد علي سيفاً وأنا أعزل مكبل، فإذا شئت أن تجرب نفسك ففك أغلالي وليحكم الله بيننا بالقسط ولا تستنكف من ذلك فإنك تبارز أميراً".

فعجب الجميع لجرأة غريب وأعجبتهم جرأته حتى أنهم خافوا عليه غضب الباشا وأشفقوا أن يأمر بقتله حالاً ولا سيما الضابط الذي كان قد تقدم ليسوقه إلى السجن، فتقدم وأمسكه بذراعه وضغط بأصبعه عليه كأنه يقول له: "أقصر من هذا الحديث فذلك خيرٌ لك.

أما الوالي فاشتد غضبه وهم بضرب غريب لكنه رأى الضابط قد ساقه إلى السجن فسكت، ولو أنه أطاع غضبه واتبع هوى نفسه لما أبقى على غريب،

لكنه كان شاعراً بضعفه عن مقاومة الجنود المصريين، عالماً أن الدائرة ستدور عليه، وكان قد طلب قبل ذلك المفاوضة في أمر الصلح فجاءته أوامر من الأستانة تشدد عزيمته فأمسك عن المفاوضة في انتظار النجدة، وهو فيما بينه وبين نفسه يعلم أنه لا يقوى على مقاومة أولئك الجنود الذين دوخوا الأقطار السودانية والغربية الرومية. بفضل ما هم عليه من النظام الحديث فخاف إذا قتل غريباً أن يثير غضب الأمير بشير فإذا وقع في يده فلا شيء ينقذه من القتل. ولذلك أمسك نفسه وترك غريباً يساق إلى السجن.

ومضى الضابط رئيس الشرطة بغريب إلى سجن عكا،وهو سجن مظلم يوصل إليه ببضع درجات تحت الأرض. وفيما هم في الطريق أخذ يفكر في هذا الاتفاق الغريب الذي جر عليه البلاء العظيم، فأظلمت الدنيا في عينيه ولا سيما حينما تذكر والدته وما يكون من حزنها عليه إذا أصابه سوء، ثم طرق ذهنه ما أوصته به عند وداعه وتذكر تلك البطاقة التي أعطته إياها وأوصته أن يقرأها في وقت الشدة والضنك. فمد يده إلى جيبه وكان قد حل وثاقه وأخرج تلك البطاقة فقبلها وفتحها والحراس ينظرون إليه ثم قرأها فإذا فيها هذه الكلمة الذهبية: "ثق بالله ولا تبال". فاطمأن قلبه وانبسط وجهه كأنه كان في شدة ونجا منها. وقد لاحظ ذلك سالم أغا رئيس الشرطة لأنه كان بجانبه فحدثته نفسه أن يسأل غريباً عما في تلك البطاقة، وكان قد أحبه ومال إليه منذ رآه، ومن ثم لم يمل طرفه عنه، فتقدم إلى غريب قائلاً: "ما هذه الورقة التي فتحتها؟".

قال: "هي ورقة لا فائدة لك فيها".

فقال: "نعم أعلم ذلك، وإنما أريد أن أطلع عليها".

فقال غريب: "ليس فيها شيء يوجب الكتمان، لكنها مقدسة عندي لأنها من أعز الناس إلي".

فضحك الأغا وقال: "لعلها رسالة من حبيبتك".

فخجل غريب وقال: "كلا، وإنما هي من والدتي".

فأراد الأغا أن يعيد السؤال، ولكنهم كانوا قد وصلوا إلى السجن، فأدخل غريباً فيه، وصرف من كان معه من الشرطة، ثم دخل السجن معه لكي يعد له مكاناً يمكث فيه.

أما غريب فاستعظم الدخول إلى ذلك المكان المظلم، وكاد الشرر يطير من عينيه، ولم يكن معه إلا الأغا فسار به إلى حجرة مضيئة ليس فيها أحد وأجلسه على حصير هناك وجلس بجانبه، فتعجب للطف الأغا وخشي أن يكون هذا منه من قبيل المكر والدهاء لكي يقتله، فصار ينظر إليه نظر الحذر، فلم يجد في ملامح وجهه ما يدل على الغدر أو الخيانة.

ثم اقترب الأغا من غريب وهمس إليه قائلاً: "ألا تطلعني على تلك البطاقة؟".

فقال غريب: "وما شأنك بها؟".

قال: "لا غرض لي سوى الاطلاع على نصائح الوالدين".

فأعطاه البطاقة فلما قرأها وقف شعر رأسه من التأثر وقال: "الحق أن هذه الوالدة لجوهرة ثمينة، ولا غرو وأنت ثمرة تربيتها".

فحمل غريب ذلك اللطف والدعة على الخديعة، لأنه قلما ظهر بين رجال والي عكا أناس لهم مثل هذه العواطف الشريفة.

ثم قال الأغا لغريب: "قد آن وقت الغداء، ولعلك في حاجة إلى طعام؟".

فقال غريب: "إن نفسي لا تطلب طعاماً ولا شراباً".

فأخذ سالم أغا يخفف عنه ويعزيه إلى أن قال: "يلوح لي أنك لم تقاس عذاب السجون أيها الأمير. فكل واشرب واهنأ، وعسى أن يمن الله بالفرج من الآن حتى المساء".

فلاح لغريب أن الرجل يقصد مساعدته، فهدأ روعه وأكل قليلاً من الطعام، لكنه عاد فتذكر والدته فانقبضت نفسه ولاحظ سالم أغا تغيره فقال له:"ما بال سيدي الأمير تغيرت هيئته؟".

فقال غريب: "لا تظن يا أخي أني خائفٌ من الموت، فلا ورأس أبي ما أهمني ذلك، ولكني تذكرت والدتي، وهي إذا علمت بسوء أصابني لا تعيش ساعة من بعدي، وإذا كنت أحب الحياة فمن أجلها".

فتبسم سالم أغا قائلاً: "طب نفساً يا عزيزي فإني عونٌ لك على النجاة من هذا الضيق".

فقال غريب: "وكيف يمكنك ذلك وقد أمرت أن تحافظ علي في السجن؟".

فقال: "هذا لا يهم، والله يفعل ما يشاء".

فقال غريب: "إذا كان في نجاتي ما يتعارض مع مصلحتك فإني أفضل الموت على أن أسبب لك ضرراً".

فعجب الأغا لهذه العواطف الشريفة وازدادت محبته له وهم به وقبل عارضيه: "لا يا سيدي، إن مساعدتك لا تعد خيانة، لأني أكون قد أنقذت بريئاً من يد ظالم، وأنت تعلم أن عبد الله باشا رجلٌ مستبد غشوم لا يعرف الصداقة، وهو رئيسي حقاً، ولكنني رأيت منه أموراً أوجبت نفوري منه وميلي إلى الجنود المصريين".

فقال غريب: "يا للعجب! ألا تكون بذلك قد خرجت عن طاعة مولاك وخنت وطنك؟".

فضحك سالم أغا وقال: "لا يا سيدي لأن عبد الله باشا ليس مولاي، ولا أنا من أهل عكا أو سوريا، وإنما هي المقادير ساقتني إلى هنا، وسأقص عليك قصتي في فرصة أخرى إن شاء الله".

ثم قال غريبٌ: "والآن ماذا نفعل؟".

فقال الأغا: "أنا أتعهد لك بالخروج من هذا السجن في هذا الليل بكل أمان إلى معسكر أبيك، ولكنني أريد منك أن تؤمنني على حياتي أمام إبراهيم باشا، ولا بد لي قبل كل شيء من أن تعاهدني على الصداقة فنكون أخوين متحالفين، فأتعهد بإخراجك من هذ السجن وأنت تتعهد بحفظ حياتي عند

وصولنا إلى معسكركم. والآن سأخرج من هذا السجن لأهيئ ما يلزم، ثم آتيك بعد الغروب".

قال: "حسناً".

فخرج الأغا وبقي غريب وحده يتأمل كلام سالم أغا، وهو لا يزال في ريب مما قاله. ثم أخذ يتأمل ذلك السجن المخيف، وما لبث سالم أغا حتى رجع فرأى غريباً في انتظاره ذاهب الصبر، فقال له: "قد أعددت كل ما يلزم للفرار فهيا".

فقال: "يسوءني وأيم الحق أن أخرج من هذا المكان فراراً، ولكن ما الحيلة..".

ثم سار سالم أغا ممسكاً بيد غريب، وهو يتلمس الطريق في الظلام حتى وصل إلى باب مغلق ففتحه ودخل به إلى حجرة في أحد جدرانها طاقة عليها قضبان من الحديد، فقال لغريب: "قف هنا قليلاً". ثم جاء بسلم من إحدى زوايا الغرفة وصعد به إلى تلك النافذة وما زال يعالج قضبانها بأداة في يده حتى قطع قضيبين منها، فصار في الإمكان خروج الإنسان، ثم ربط القضيبين بحبلين ودلاهما من الطاقة حتى نهاية الحبلين، فأثبتها في القضبان الباقية وقال: "اصعد يا سيدي على هذا السلم". فصعد غريب وأطل من الطاقة، فإذا هي تشرف على البحر والأمواج تلطم جدار السجن وتدوي في هدوء ذلك الليل، وقال له سالم: "لا تضيع الوقت، انزل رجليك من النافذة أولاً، وانزل ممسكاً بالحبل ولا تخف، وسنجد قارباً ينتظرنا فنمضي فيه بسلام".

فأخرج غريب نفسه من النافذة مبتدئاً برجليه جاعلاً صدره لجهة الحائط فلما قرب من إنزال يديه فطن إلى الخطر المحدق به فيما إذا انقطع به الحبل وسقط في الماء، ولا سيما أنه لم يكن يحسن السباحة، لكنه تجلد وتشجع فأمسك بالحبلين معاً ونظر إلى أسفل الحائط فإذا بقارب فيه إثنان من البحارة وكأنهما يشيران إليه بالنـــزول فأخذ يتدلى حتى وصل إلى القارب، وبعد

قليل لحق به سالم، فلما صار الإثنان في القارب انطلق به البحارة في هدوء حتى داروا من وراء سور المدينة وبعدوا عن الخطر فدنوا من الشاطئ ونزلوا، وإذا بجوادين ينتظران هناك كان سالم أغا قد أعدهما، فأشار إلى غريب أن يركب أحدهما، ثم ركب هو الجواد الآخر، وانطلقا حتى وصلا إلى معسكر إبراهيم باشا.

★★★

لم يكن الأمير بشير قد علم بخروج غريب صباح ذلك اليوم، فلما جاء وقت الغداء ولم يحضر، سأل عنه فقيل له: "إن بعض الجند رأوه خارجاً على جواده في ساعة مبكرة من الصباح". فلج في السؤال عنه فلم يقف له على أثر، ثم بث رجاله يبحثون عنه في الصحراء فعادوا دون فائدة. فغضب الأمير غضباً شديداً وأصبح النور في عينيه ظلاماً، ولم يعد يستطيع صبراً فركب جواده وركب معه بعض رجاله وساروا يبحثون عن غريب في جهات الجنوب، ظناً منهم أنه توجه للنزهة في منطقة حيفا وجبل الكرمل، فقضوا بضع ساعات في البحث، ثم عادوا إلى المعسكر فإذا بغريب قد عاد إليه ومعه سالم أغا وجلسا في خيمة الأمير، فسلم غريب على أبيه وأخبره بسبب غيابه ونوه بفضل سالم أغا عليه وإنقاذه من الموت.

فقال الأمير لسالم أغا: "لا بد لنا من مكافأتك، فأطلب ما تشاء".

فقال: "أسألك يا سيدي أن تتوسط لي أمام إبراهيم باشا ليقبلني في جيشه، لأني كنت قبلاً من جنده وخرجت بغير إذن منه".

فوعده بأن يأخذه في الغد إلى إبراهيم باشا، ويخاطبه في شأنه.

وفي صباح اليوم التالي سار الأمير بشير، ومعه غريب وسالم أغا إلى خيمة الباشا، فلما شاهده إبراهيم باشا عرفه وسأله قائلاً: "ألست سالم أغا؟". قال: "نعم يا سيدي إني عبدك سالم".

قال الباشا: "وأين كنت بعد رجوعنا من حرب المورة فإني منذ نزولنا في مصر لم أشاهدك قط وحسبت أنك أصبت بسوء؟".

قال: "جئت إلى عكا أفتش عن ضائع لي، ثم أقمت بها".

فقال الباشا: "كيف تقول أن لك ضائعاً في هذه الجهات وقد جئت معنا من بلاد اليونان؟".

فتنهد سالم وقال: "هذا هو الواقع يا سيدي، وقد جئت الآن في صحبة سيدي الأمير طالباً العفو عن زلتي".

فقال بشير: "إنه صاحب فضل، فقد أنقذ غريباً من الموت".

وقص القصة عليه ثم همس في أذنه أن بقاء هذا الرجل معه يفيده كثيراً لأنه يستطلع منه أخبار العدو.

فقال الباشا: "لا بأس، قد عفونا عنك، ولكن عليك قبل كل شيء أن تخبرني عن حالة عكا وما هي مقاصد عبد الله باشا؟".

فوقف سالم أغا ثم جثا أمام الباشا، وقال: "لقد خرجت من المدينة سراً، وأخرجت معي أسيراً كان يجب أن أحافظ عليه في السجن، وبذلك خالفت أوامر رئيسي، وأرجو أن يعفيني مولاي من اطلاعه على أسرار المدينة، فإن الأمانة تمنعني من ذلك".

فعجب الأمير بشير لشهامة سالم، أما إبراهيم باشا فلم يدهشه ذلك لأنه كثيراً ما شاهد مثله منه في حروبه بأرض المورة، لكنه قال له: "أنت في الأصل من جندنا، فإذا اطلعتنا على أسرار المدينة كنت بذلك قد أديت واجباً عظيماً".

فقال: "عفواً يا سيدي أني لا أحب أن أكون من الجواسيس ولا يسعني أن أخبرك بشيء عن حال المدينة مهما يكلفني ذلك".

فتبسم إبراهيم باشا وقال: "لا بأس يا سالم فقد عودتني مثل هذه الشهامة منذ كنت معي في المورة". ثم نادى أركان حربه وأمره أن يجعل سالماً في عداد ضباط الجيش كما كان، فقبل سالم يد الباشا وشكر الأمير بشيراً، وخرج.

فقال الأمير لإبراهيم باشا: "لم أشاهد مثل هذه الشهامة قط".

فتبسم الباشا قائلاً: "هذه ليست المرة الأولى التي عرفت فيها شهامته، فقد عرفته لأول مرة منذ خمس سنوات في نافارين بالمورة ببلاد اليونان، وليس يخفى على سعادتكم أني توجهت بعمارة بحرية بأمر الباب العالي إلى هناك على أثر ثورة اليونان على الدولة، ففي سنة ١٨٢٦ بينما كانت عمارتنا راسية في ميناء نافارين ونحن بين هجوم ودفاع على تلك المدينة، جاءنا هذا الرجل في قارب رافعاً علماً أبيض، ولما وصل إلينا سألناه عن غرضه فذكر أنه من جنود اليونان وقد جاء مسلماً وإن تسليمه غير مبني على خوف أو خيانة ولكنه يود البقاء معنا ريثما نعود إلى مصر.

ولما رأيته يتكلم العربية تعجبت من حاله وسألته عن حكايته فاعتذر بأنه لا يمكنه اطلاعي عليه، فأردت الاستفهام منه عن قوة اليونانيين ومقاصدهم فكان جوابه أنه لا يمكنه إفشاء سر أؤتمن عليه وإن يكن غير يوناني الأصل، لأن الشهامة تقضي عليه بكتمان ذلك، فتهددناه بطرق مختلفة، لكنه لم يفه بكلمة، وقد أعجبت بشهامته وأبقيته معنا حتى عدنا إلى الإسكندرية، ثم لم أعد أراه حتى الآن".

فأوصى الأمير بشير إبراهيم باشا بمساعدته.

- ١١ -

فرحة اللقاء

وفي أوائل سنة ١٨٣٢ كتب محمد علي باشا إلى ابنه إبراهيم باشا أن يفوض إلى الأمير بشير تولي أحكام في صيدا، وتصريف أمور جميع المقاطعات التابعة لها، فرأى غريب أن وجوده هناك لم يعد يأتي بفائدة، فطلب إلى الأمير أن يسمح له بالعودة إلى بيت الدين، ولما أذن له في ذلك ركب مع جماعة من رجاله وسار بعد أن ودع صديقه سالم أغا، فوصل بعد مسيرة يوم ونصف يوم إلى مدينة صور.

ولم يشأ النـــزول في هذه المدينة، لكنه أراد المبيت عند رأس العين قبل المدينة

بمسيرة حوالي نصف ساعة، وهو موضع فيه مياه غزيرة تفور من نبع أقيم حوله سور لحصرها فيه، وهناك بساتين تسقى منها، وطواحين تدور بها. فنصبت لهم الخيام هناك وكانت الشمس قد مالت إلى الأصيل، والبساتين مخضرة في أول الربيع، والجو غاية في الصفاء، على أثر وابل غسل الأرض ونقى الجو.

فترجل غريب عن جواده وسار للرياضة في تلك البساتين ترويحاً للنفس، بعد أن أمر من معه بنصب الخيام وتهيئة الطعام، وسار برفقته أحد أتباعه فشاهد من بعيد شخصاً عليه عباءة قديمة فتقدم نحوه، فإذا به شيخ طاعن السن في يده عكاز، وقد أرخى شعر رأسه الأبيض على كتفيه، ولحيته ملء صدره وهي الأخرى بيضاء، ولكنه يسير مطرقاً لا يلتفت يميناً ويساراً. فتعجب من حاله وحدثته نفسه بأن يسأله عن أمره فناداه قائلاً: "إلى أين يا سيدي الشيخ؟".

فانتبه الشيخ كأنه هب من رقاد، ووقف ينظر إلى غريب، ثم واصل سيره دون أن يجيب.

فازدادت دهشة غريب، وعاد فقال له: "ما لك لا ترد علي؟ ألا تعلم أن السير في هذه المنطقة لا يسمح به إلا بإذن خاص؟".

فالتفت إليه الشيخ مغضباً وقال: "إني عَبدٌ من عبيد الله، أسير في أرض الله، فليس لك ولا لغيرك أن تتدخل في هذا الأمر".

فأعجب غريب بهذا الجواب، وتقدم إلى الشيخ محاولاً أن يأخذ بيده، فإذا به قد غضب وثار وحمل عليه عصاه، فابتسم غريب وأدرك أن عقل الرجل غير صحيح، واعتزم أن يخاطبه على قدر عقله. ولكن تابع غريب أمسك بيد الشيخ قائلاً: "تأدب يا هذا واعلم أنك تخاطب ابن الأمير بشير".

فبهت الشيخ ورفع عينيه إلى غريب وتأمله برهة، ثم أطرق من جديد وصار يرتجف حتى وقعت العصا من يده، وخيل إلى غريب أنه رأى وجه الشيخ من قبل، لكنه لم يتذكر أين رآه، وأسكت تابعه وتقدم للشيخ بكل

هدوء وقال له: "ما اسمك يا سيدي؟".

فقال: "قل لي أنت ما اسمك أولاً".

قال: "أنا غريب ابن الأمير بشير، فمن أنت؟".

فرمى الشيخ بنفسه على غريب، وأراد التكلم فلم يستطع وصارت شفتاه ترتجفان، ومد يده إلى كوفية غريب يريد نزعها، فأراد خادم غريب أن يمنعه فلم يستطع، فحالما وقعت الكوفية عن رأسه رنا بنظرة إلى جبين غريب ولمس موضع الضربة التي كان أصيب بها في الصحراء بمصر.

وسرعان ما تذكر غريب تلك الأيام، ففطن إلى أن الشيخ هو نفسه "سليمان المصري" الذي أنقذ حياته من اللصوص قاطعي الطريق، فأمسك بكتفيه وصاح به قائلاً: "من ذا أرى؟ الأمير سليمان؟".

فانهمرت دموعه ولم يستطع جواباً، فصرخ غريب: "أهلاً وسهلاً بسيدي ومنقذي من الموت". وطفق يقبل يديه، وأمر خادمه فجاءه بالماء فرشه به وأجلسه وأخذ يحادثه ويخفف عنه حتى سكن روعه. فقال له: "ما الذي جاء بك إلى هنا؟ وأين كنت كل ذلك الزمن الطويل؟".

فتأوه وبكى، ولم يبد جواباً. فاستأنف غريب الحديث قائلاً: "إن أبي الأمير بشير في عكا برفقة الجنود المصريين، وعما قليل يلحق بنا إلى بيت الدين". فقال الشيخ: "أهو بخير؟". قال: "نعم ولا بد أنه سيسر كثيراً بمشاهدتك، فإن لك علينا فضلاً كبيراً، هيا بنا الآن إلى الخيام لنبيت هذه الليلة وفي الغد نركب معاً إلى بيت الدين ونبقى هناك ريثما يعود أبي فيسر بمشاهدتك".

فامتنع أولاً، ولكن غريباً ألح عليه حتى رافقه إلى رأس العين، وهناك سأله أن يغتسل ويغير ثيابه فقال: "لا يا ولدي، إن ثيابي لا أغيرها، وإنما لا بأس بالاغتسال".

ثم مد السماط فأكلوا، وكان غريب عظيم السرور لهذا اتفاق لأنه كان يشعر بثقل الجميل الذي كان عليه لذلك الرجل الذي أنقذه من مخالب الموت وقد ترك لذلك أثراً في جبينه.

وبعد الطعام جلسوا لتناول القهوة، فأراد غريب مفاتحة الشيخ ثانيةً في حكايته، فأجابه هذا بقوله: "إن حكايتي لا أحكيها إلا أمام أبيك". فلم يراجعه ولكنه لم يعد يعرف كيف يكرمه وخطرت في باله والدته فقال: "إني مسرورٌ جداً بلقياك يا سيدي، وإنما الفرح الأعظم سيكون لوالدتي فكثيراً ما ذكرت فضلك وودت لو تشاهدك، ولا بد من أنها ستسر بك سروراً عظيماً".

فقال الشيخ: "إن ذلك كله لحسن نيتكم، أما أنا فلم أفعل إلا بعض الواجب علي لسيدي والدكم ولكن". ثم خنقته العبرات فتعجب غريب ولم يكن يعلم شيئاً عما دار في شأنه.

وفي صباح اليوم التالي أركب غريب الشيخ وجعل في خدمته رجلين، ثم ركب ومن معه وساروا حتى أمسى المساء، وفي الصباح التالي واصلوا سيرهم حتى اقتربوا من بيت الدين.

ومضى إلى القصر من بشروا من فيه بقدوم الأمير غريب، فخرج الرجال لملاقاته فرحين، ووقفت والدته في انتظاره لدى الباب وقلبها شديد الخفقان.

وكان وصول الموكب قبل الغروب بقليل، فدخل غريب القصر ممسكاً بيد الشيخ حتى وصل إلى البهو الداخلي، فإذا بوالدته في انتظاره عند باب دار الحريم. فلما وصل قبلته ولم تنتبه للشيخ فأدخله معه إلى قاعة الاستقبال فاضطربت والدته ومن معها من نساء القصر إلى عدم الدخول معهما، فنادى غريب والدته قائلاً: "تعالي يا أماه وقبلي يد الشيخ الذي أنقذ ابنك من الموت في صحراء بني سويف".

فدخلت "جميلة" القاعة وركبتاها ترتجفان، وما شاهدت الشيخ حتى صرخت قائلة: "أمين؟ أمين؟ أأنت حي؟". ووقعت مغشياً عليها!.

فذهل غريب، وأمر بالماء فرش به وجهها، وتقاطر أهل القصر على ضجة الصراخ، وكان الشيخ أكثر ذهولاً من الجميع لكنه ما سمع اسم أمين حتى صرخ: "سلمى؟ سلمى؟ أأنت هنا؟" ووقع غائباً عن الصواب.

فبهت الحاضرون كافةً، ولكنهم شغلوا برش ماء الزهر على الاثنين إلى أن أفاقا وأخذ كل منهما يتأمل وجه الآخر كأنهما أصيبا بجنون ثم أعادا النداء وتعانقا، فزاد ذهول الناس ولم يكن أحد من الحاضرين يعرف الحقيقة إلا زوجة الأمير، فأمرت كل من في القاعة بالخروج ما عدا غريباً وأبويه.

أما غريب فكان كأنه في حلم لأنه لم يكن يعرف أن ذلك الشيخ أبوه ولا أن اسمه أمين بك، ولا أن له ولداً غير الأمير بشير، ولا أن والدته تدعى سلمى، فأخذ منه الاندهاش كل مأخذ وكان يظن في أول الأمر أن والدته فعلت ذلك لشدة تأثرها من تذكر الخطر الذي كان قد أحدق به وكيف أنقذه منه هذا الرجل، ولكن لما نادى كل منهما الآخر باسم غريب عنده لم يعد يعرف كيف يؤول ذلك، وخاف على والدته أن تكون قد جنت هي الأخرى، فأخذ يخفف عنها، ولكنها لم تستطع إمساك نفسها عن البكاء الممزوج بالضحك من شدة الفرح، ثم قالت لزوجها: "لماذا لا تقبل ولدك؟".

فتركها وهم بغريب صارخاً: "ولدي. ولدي!.. أأنت ولدي يا غريب". وأخذ يقبله ويعانقه وعيناه تذرفان الدموع، فبكى غريب مشاركة لهما وهو في حيرة، حتى ظن نفسه في منام.

فتقدمت زوجة الأمير بشير له وقالت: "لا عليك يا ولدي، إن هذا الشيخ هو الأمير أمين بك، وهو أبوك حقاً، لا الأمير بشير، والآن أرجو أن تجلسوا قبل كل شيء وتسكنوا روعكم جميعاً لنشكر الله على أن جمع شتاتكم وهو قادر على أن يحيي رميم عظامكم".

فجلس الجميع وأخذت زوجة الأمير تقص على غريب حكاية أبيه باختصار وهوصامت يكاد لا يصدق أنه في يقظة.

ثم أراد أمين بك أن يسأل سلمى عن ولدها سليم فأشارت إليه أن يبقي في ذلك إلى وقت آخر إخفاء له عن غريب. وبقي الجميع صامتين برهة ثم جاء وقت العشاء وبعد الطعام ذهبت سلمى وزوجها وولدها إلى حجرتها، ثم سألت زوجها عما هداه إليها وكيف دارت به الأحوال، فقص عليها الحكاية حتى انتهى إلى

ذهابه إلى الأقطار السودانية طلباً للموت لقنوطه من الوقوف على مكان إقامتها، ثم قتله سعيداً إلى أن قال: "وبعد أن ضربته انتبهت وتأملته فإذا هو لا حراك به، وتذكرت قوله أنك على قيد الحياة، فصارت روحي عزيزة علي بعد أن كنت أعرضها للسيف والنار فطلبت الفرار من محل الوقعة حتى وصلت إلى مأمن فجلست أحدث نفسي بما كان وهو كأنه حلم لدي، فكنت تارةً أكذب مخيلتي، وطوراً أعود فأشعر بحقيقة الواقعة. ولما رجح لدي أن ما سمعته من سعيد كان في يقظة، تكدرت لقتله، وبكيت عليه".

فقالت سلمى: "واحسرتاه عليه، أنه كان خادماً أميناً بل صديقاً وفياً". ولم تستطع إمساك دموعها، ثم عاد زوجها إلى الحديث فقال: "ثم تذكرت ما قاله لي فلم أستنتج شيئاً صريحاً، لأني لم أسمع إلا قوله لي وأنا ملق بنفسي إلى النار : (لا. لا تقتل نفسك أن سيدتي سلمى حية). وكان السيف مسلولاً بيدي وكان عليه ثياب السودانيين والسيف فظننته آتياً لقتلي فضربته ضربة أظنها كانت القاضية. ولم أسمع كلماته إلا بعد أن أهويت بالسيف على رأسه فلم يعد يمكنني إمساك يدي، فالتفت إليه فإذا هو سعيد حقاً، فأسفت وندمت حيث لا ينفع الندم، وكان بودي أن أتفحص أمره لعل فيه رمقاً فحال العدو بيننا. ولم أعلم أين مقرك ولا كيف أصل إلى معرفته، وكنت قد تحققت أنك لست في مصر ولا في سوريا ولا فيما مررت به من بلاد السودان، فوقعت في حيرة وأسفت لأني لم أمت قبل مجيء سعيد بذلك الخبر إذ أصبحت بعده في اضطراب عظيم، ثم حدثتني نفسي بأن أطوف في الآفاق كما يصنع الدراويش لعل الله يجمعني بك، وقضيت في تلك السياحة تسع سنوات كاملة حتى سقم جسمي من الحزن والتعب وخفت أن أموت قبل أن أراك، فقلت في نفسي: لأذهبن قبل موتي إلى البلاد التي أخذتك منها لأشتم التراب الذي جبلت منه، وسرت على سواحل سوريا حتى التقيت بحبيبي غريب بالقرب من صور وجاء بي إلى هنا".

وكان غريب يسمع كل هذا وهو في ذهول تام لا يكاد يصدق أنه في يقظة لغرابة الاتفاق ولكون نجاته من الموت في صحراء بني سويف كانت على يد والده الحقيقي وهو لا يعلم. ثم التفت إلى والدته قائلاً: "كيف استطعت أن تكتمي عني ذلك كل هذه السنين؟".

فقالت: "كتمته عنك في أول الأمر لأني لم أر فائدة من اطلاعك على وفاة أبيك في مذبحة القلعة، ولأني كنت أرد كتمان أمري عن الناس كافةً حتى عن الأمير بشير فهو لم يعلم إلا بعد عودته من مصر وكان ذلك على غير إرادتي. أما الرجلان الوحيدان اللذان كانا يعلمان السر فهما: خادمنا المرحوم سعيد ورئيس الدير ولم أخبرك به بعد أن علمت بوجود أبيك على قيد الحياة في مصر خوفاً من ألا تسمح المقادير بوصوله إلينا فأكون قد سببت لك حزناً بلا جدوى. فتركتك على اعتقادك بأنك ابن الأمير بشير على أن نخبرك بالحقيقة إذا ظهر أبوك فيما بعد وإلا بقي الأمر مكتوماً عنك. فنشكر الله القادر على كل شيء، فقد رد ضالتنا وجمعنا بسيدنا وملاذنا".

– ١٢ –

فتح عكا

ما زال غريب وأبواه في مثل هذه الأحاديث حتى انقضى شطر كبير من الليل وهم لا يشعرون، وكانوا مستدفئين في غرفتهم وهم يسمعون عصف الرياح والزوابع والثلوج المتساقطة والرعود القاصفة في الخارج، فقالت سلمى: "لعل الأفضل لنا أن نذهب إلى فراشنا إذ قد مضى معظم الليل وأجسادنا تحتاج إلى الرقاد، وفي صباح الغد نجتمع ونتم حديثنا إن شاء الله".

فوافقاها على رأيها وذهب كل منهم إلى فراشه مطمئناً إلا أمين بك فإنه كان لا يزال مضطرب البال على ولده سليم، فبكر وحده في الغد إلى حجرة زوجته، وسألها عن حكاية ولدهما فشرحت له حكايته فأسف وبكى، فقالت له: "إني لا أزال كاتمة ذلك عن غريب لئلا أحزنه بدون جدوى".

فقال: "حسناً فعلت، بورك فيك من امرأة فاضلة".

ثم استيقظ غريب وجاء إلى والديه وقضوا ذلك النهار في الأحاديث، وبعثت سلمى إلى رئيس الدير ليشاركهما الفرح.

ومكث الجميع في انتظار رجوع الأمير بشير، لعلهم أنه يسر كثيراً بمشاهدة أمين بك والتقائه بزوجته وولده، فلما عاد الأمير إلى بيت الدين واطلع على الأمر عجب لذلك الاتفاق، وشاركهم الفرح غير أنه كان مرتبك الأفكار من جراء الأحوال السياسية وغضب الدولة العلية عليه لمساعدته الجنود المصريين حتى كتب والي حلب إلى اللبنانيين يهددهم ويأمرهم بأن يختاروا والياً عليهم غيره، وقد اتحد الدروز مع جنود الدولة وقامت الحرب بينهم وبين نصارى لبنان سجالاً، في دير القمر وزحلة والمتن، إلى أن قرر الدروز الثورة ضده في حمانا ليشغلوا إبراهيم باشا عن قتال الدولة في حمص.

وكانت عكا إلى ذلك الحين لم يتم فتحها لأنها امتنعت على الجنود المصريين أكثر من خمسة أشهر.

وفي ٢٧ مايو ١٨٣٢ أمر إبراهيم باشا جنوده بأن يهجموا على عكا مرةً واحدةً، وأطلق عليها النار باستمرار ففتحها عنوةً ودخلها بجيوشه وأمن عبد الله واليها فسلم له وأقبل عليه فصافحه وطيب قلبه وسار به إلى قصر البهجة، ثم بعث به بحراً إلى والده في الإسكندرية.

فلما وردت البشائر إلى بيت الدين بذلك نهض الأمير إلى عكا لتهنئة إبراهيم باشا بالفتح، وطلب غريب مرافقته فقال له: "لا داعي يا ولدي إلى ذهابك إلى هناك، ومن الخير أن تبقى مع والديك هنا، لأن البلاد ثائرة علينا وقد أصبح أعداؤنا كثيرين فأخشى أن يكون عليكم بأس من جماعة الدروز، يمكنكم الخروج إلى الجهات القريبة لترويح النفس ريثما أعود".

ولما رجع الأمير من عكا أخذ يتأهب لملاقاة إبراهيم باشا في دمشق، وكان هذا قد سار لفتحها، فأخذ معه ولديه خليلاً وأميناً، وترك غريباً قائلاً له: "إن وجودك هنا لا بد منه لأننا نحتاج إلى من يحافظ على بيتنا".

وحينما حل موعد سفر الأمير ركب غريب معه لوداعه مسافة ساعتين، ثم قال له الأمير: "حسبك هذا يا ولدي، فارجع إلى والديك". فرجع.

وكان غريب راكباً جواداً أزرق، عليه سرج مفضض، وعلى رأسه الكوفية والعقال، وعلى كتفيه عباءة بيضاء تغطيه وتغطي ظهر جواده وكان من أجود الخيل الأصلية، يمشي به مشية العروس مع وعورة المسالك في تلك الجبال الصخرية.

وكان غريب قلما يعجب بنفسه، ومنذ اجتمع بأبيه أمين بك وهو لا يني يفكر في خدمته وراحته، فأخذ في أثناء عودته من توديع الأمير يفكر في وسيلة تمكنه من ذلك.

- ١٣ -

إبراهيم باشا في سوريا

مر غريب في طريقه إلى بيت الدين بقصر جميل منعزل كان قد شاهده مراراً ولم يدخله، فأخذ يتأمله معجباً بما يحدق به من الأشجار، ومعظمها من التين والزيتون والكرم والصنوبر، وشغل بتلك المناظر حيناً، ثم سمع صوتاً يناديه من جهة القصر قائلاً: "خذ حذرك يا أمير غريب؟".

فالتفت فلم ير أحداً، لكنه ما لبث أن سمع وقع حوافر جواد مسرع وراءه، وعليه رجل ملثم منقض عليه برمح في يده يريد طعنه به، فاستل غريب سيفه بأسرع من لمح البصر وتلقى به ذلك الرمح وطعنه فقطعه نصفين، ثم هجم على ذلك الفارس وهو لا يعلم من هو صائحاً به: "من أنت يا خائن؟"

فلم يرد الفارس، ولكنه أخرج من سرج جواده مسدساً وحاول إطلاقه عليه، فانقض غريب عليه وأمسك المسدس بيده فخرج الطلق في الهواء، وسرعان ما برز من الجهة التي جاء الفارس منها جماعة من الفرسان جميعهم ملثمون، فصرخ فيهم غريب بقلب لا يهاب الموت قائلاً: "مذا تريدون أيها الأنذال؟ أتظنون أن كثرتكم تخيفني؟". قال ذلك وهجم بسيفه فضرب أحدهم على رأسه فقضى عليه، وضرب الآخر فأصابه ما أصاب رفيقه.

لكنهم تكاثروا عليه حتى تعبت يده من الضرب وأصيب بضربة في ذراعه اليسرى. واستمرت المعركة ساعة شعر بعدها غريب بأنه في خطر وكاد يعمد إلى الفرار فسمع صوتاً يقول له: "لا عليك يا أمير غريب، ولا تبال هؤلاء الخائنين الغادرين". فالتفت إلى جهة الصوت فإذا بفارس ملثم خرج من تلك البساتين وقد جرد السيف وهجم على أولئك الفرسان، فاشتد قلب غريب وعاود الهجوم عليهم حتى فروا تاركين وراءهم ثلاثة من القتلى.

وهمز غريب جواده وهو مذهول، ليقترب من ذلك الفارس الملثم ليشكر له فضله ويسأله من يكون، ولكن هذا سرعان ما أدار شكيمة جواده إلى ذلك القصر بعد أن أومأ إلى غريب مودعاً، ومضى لا يلوي على شيء.

وناداه غريب قائلاً: "بالله عليك يا أخي قف لأكلمك". فلم يجبه.

فعجب غريب لذلك واشتد ميله لمعرفة الفارس وسار في أثره، فهمز الفارس جواده حتى دخل الحديقة وترك جواده واختفى داخلها بأسرع من لمح البصر.

فتعقبه غريب إلى الحديقة، ولكن الخدم أوقفوه وسألوه: "ماذا تريد؟". فقال: "أريد مقابلة صاحب هذا القصر".

فقال أحدهم: "أنه ليس هنا". فقال: "لا بأس، إذن أن أقابل الفارس الذي أمامي الآن".

فقال الخادم: "لا يوجد فارس هنا الآن، ولعل الأمر تشابه عليك".

فقال: "كلا، لا شك عندي في وجود فارس هنا لأني رأيته بعيني داخلاً هذه الحديقة بجواده".

فغالطه الرجل، وكان غريب قد نسي جرحه في ذراعه لشدة تأثره بهذا الأمر، ثم أحس به فخاف إذا طال أمره ولم يغسله ويعالجه أن يضره ذلك، فقال الرجال: "هل تعلم أنك تخاطب ابن الأمير بشير؟".

فبهت الرجل وتقدم إلى غريب قائلاً: "العفو يا سيدي، لم أكن أعلم

ذلك". ثم أمسك بركاب الجواد وأنزله ودخل به إلى القصر، وأصعده إلى الطابق العلوي فأدخله قاعةً مفروشةً بأثمن الفرش.

فقال غريب: "لا حاجة لي بكل ذلك، وإنما أريد منك قليلاً من الماء لأغسل جرحي وقطعة قماش لأربطه".

فخرج الرجل ليأتي بما أمر به، وبقي غريب في تلك القاعة مفكراً في حكاية ذلك الفارس، وفيما هو يهم بكشف ذراعه لغسل الدم، إذا بفتاة مقبلة على الغرفة كأنها حورية من حور الجنان، وعليها ثوب بسيط أبيض ناصع، وهي طويلة المد رشيقة الحركات مع رزانة ووقار، وعيناها سوداوان كبيرتان، ولونها قمحي، وشعرها أسود حالك قد ضفرته وأرسلته على ظهرها وكتفيها، وتتجلى على محياها ملامح البساطة والكمال مع ما هي فيه من غضاضة الشباب.

فلما رآها أطرق خجلاً وعلا وجهه الإحمرار لأنه كان مكشوف الذراع، فابتدرته قائلةً: "لا تؤاخذني يا سيدي على مجيئي إليك بغير استئذان ولا معرفة سابقة، ولكن الخادم أخبرني أنك مجروح الساعد، وقد ذهب ليأتيك بما يلزم لتضميده، وأنا الآن وحيدة في هذا البيت فلم أر بدا من المجيء لأعينك على ذلك".

فرفع غريب نظره إليها وقد ذهل لحسنها لطفها، وشعر بخفقان قلبه لأول مرة أمام فتاة، فشكر فضلها قائلاً: "إني شاكر لفضلك أيتها الآنسة اللطيفة، ولكني آسف لتحملك هذه المشقة بسببـــي، وأشكر المقادير التي ساقتني إلى مشاهدتك". قال ذلك وقلبه يخفق وأعضاؤه ترتجف.

ثم جاء الخادم بالماء فغسلت الفتاة ذراع غريب ولفتها بالعصابة، وكان غريب في أثناء ذلك غارقاً في بحار من الهواجس، وهاج به الوجد، وكلما مست يدها يده وهي تضمد الجرح شعر بكهرباء تجري في دمه، على أنه لاحظ أنها لم ترفع نظرها إليه ولا نطقت بكلمة واحدة، فكان الاثنان صامتين والقلبان يتكلمان.

فلما انتهت من تضميد جرحه، جلست على مقعد أمامه وأخذت ترحب بقدومه، أما هو فكان غائب عن الصواب، ثم شدد عزيمته وحاول إخفاء ما به ولكنه لم يقدر أن يرفع نظره إلى الفتاة إلا عندما تخاطبه أو يخاطبها لأن الحياء كان يمنعه من ذلك كما كان يمنعها، ثم ابتدرها قائلاً: "هل لك أن تخبريني عن صاحب هذا البيت؟".

فقالت الفتاة: "إنه يا سيدي غائب الآن وقد سافر في هذا الصباح مع سيادة والدكم إلى دمشق".

قال غريب: "حسناً، ومن هو؟".

قالت: "اسمه الأمير سعيد".

قال: "أليس من عشيرة بني شهاب؟".

قالت: "نعم يا سيدي".

قال: "وهل أحد من أولاده ههنا الآن؟".

قالت: "ليس هنا من أولاده أحد سواي، بل ليس له أولاد غيري".

فقال: "أنعم بك يا سيدتي، والآن أريد أن أسألك سؤالاً آخر، أخشى أن أكون قد أكثرت من التطفل، على أني في حالٍ من الدهشة تدفعني إلى كثرة السؤال فهل تعذرينني على كثرة تطفلي؟".

قالت: "عفواً يا سيدي، سل ما تشاء".

قال: "لقد كنت في ضيق بلغ حد الخطر، فخرج من هذا القصر فارس أنقذني من الموت، وكان ملثماً فلم أعرفه، ولما أردت مقابلته همز جواده وانطلق به إلى هنا، فاقتفيت أثره فإذا به قد دخل هذا البستان ثم رأيته ترجل ودخل هذا القصر، فمن يكون هذا الفارس؟".

فأطرقت الفتاة وعلا وجهها الاحمرار ولم تبد جواباً، وأخذت تتشاغل بثني أطراف ثوبها بين أناملها. فعجب غريب لسكوتها وخجلها وندم على توجيه السؤال إليها بعد أن ذكرت له أنها وحيدة في البيت، وليس فيه أحد من

الرجال. ثم استأنف غريب الحديث قائلاً: "لقد أخطأت بتوجيه هذا السؤال يا سيدتي فأسألك الصفح والمعذرة".

فرفعت رأسها وأجابته قائلة: "عفواً يا سيدي فإنك لم تأت ما يعتذر منه أمثالك من الأمراء المهذبين".

فخجل غريب من هذا المديح وأطرق، فقالت الفتاة: "أما سؤالك عن الفارس الذي خرج من هذا البيت لمساعدتك ثم عاد إليه، فأرجو أن أجيبك عنه في فرصة أخرى إذا قدر لنا الاجتماع ثانيةً".

قال غريبٌ وقد هاجت عواطفه: "إذا كان اجتماعنا لا يتم ثانيةً إلا بمعركة كالتي جمعتنا في هذه المرة، فحبذا المعارك".

فسكتت الفتاة و لم تبد جواباً.

وبقي الاثنان صامتين مطرقين لا يبديان حراكاً، ثم تذكر غريب والديه وخاف أن يستبطئاه والشمس قد مالت إلى مغربها، كما لاح له أيضاً أن وجوده مع الفتاة في القصر منفردين ربما يؤدي إلى شبهة تضر بسمعتها، فنهض مستأذناً، فنهضت لتشييعه ومدت يدها إليه مودعةً داعية له بالسلامة وقالت: "ألا تخشى أن يعود أولئك الأشقياء ثانيةً؟".

فقال لها: "لا بأس علي بإذن الله". وغادر القصر وكأنه قد ترك قلبه، فإذا بالخدم قد أعدوا له الجواد فركب وسار قاصداً بيت الدين.

وقبل أن يتوارى عن القصر التفت إليه فإذا بالفتاة تنظر إليه من إحدى نوافذه، فسار مشغول الفكر بها، وأحس بأنه أحبها كل الحب، وود لو تسمح المقادير بأن تشاركه في حياته، ثم تذكر أن والدته كانت تريد أن تزوجه قبل سفره إلى عكا من فتاة ذكرتها له وخشي ألا يميل قلبه إلى تلك الفتاة التي اختارتها والدته، وعند ذلك ربما تقوده عواطفه إلى مخالفة أمر والديه في حين أنه يبذل الطاعة التامة لهما.

وما زال سائراً وهو يحدث نفسه بمثل ذلك حتى وصل بيت الدين، فإذا بوالديه ينتظرانه بفروغ الصبر، فهما به وقبلاه، ولاحظا أنه متغير الوجه تبدو عليه مظاهر

الارتباك، وسألته والدته عن سبب ذلك، فروى لهما ما حدث له من أوله إلى آخره إلى أن ذكر الفارس الذي خرج لمساعدته من القصر. وكيف أنه عاد ولم يعرف مقره، ثم قال لوالدته: "وفي المساء سأقص عليك بقية قصتي".

فقلقت الأميرة سلمى لذلك، ولكنها صبرت إلى أن جاء المساء فقص عليها ما دار بينه وبين الفتاة من الحديث إلى أن قال: "وأعترف لك يا والدتي بأني قد علقت هذه الفتاة لما رأيت فيها من الكمال واللطف والرقة والجمال. وأظنها كانت سبب نجاتي من أيدي اللصوص، ولكنك ذكرت لي فتاة أخرى خطبتها لي فمن تكون؟".

فقالت سلمى: "أنا لا أريد أن أكرهك على ما لا تحب، وإنما أقول لك أن الزواج من أهم الأمور، ولابد من التبصر قبل التصميم عليه، وأنا لا أعرف هذه الفتاة وربما تكون موافقة، وأما الفتاة التي خطبتها لك فأعرفها جيداً وهي من عائلة بني شهاب، ووالده ليس له غيرها".

فقال غريب: "وهذه أيضاً وحيدة أبويها ومن عائلة بني شهاب".

قالت: "إن كونها وحيدة أبويها ليس كل الفضائل المطلوبة، وأما الفتاة التي خطبتها لك فأبوها من الأمراء المقربين لدى الأمير بشير، وقلما يسير في سفر مهم إلا صحبه معه".

فقال غريب: "وما اسم أبيها؟".

قالت: "الأمير سعيد". فصرخ غريب قائلاً: "إذن هي نفسها الفتاة التي رويت لك حديثها".

فقالت: "ما أظن أنها هي، لأنك ذكرت أنها قابلتك وحدثتك، والأميرة التي أعنيها لا تقابل أو تكلم أحداً لا تعرفه".

فقال: "لقد قضت عليها الضرورة بالظهور أمامي، والضرورات تبيح المحظورات".

فقالت: "أين هو ذلك القصر الذي قابلت فيه فتاتك؟".

فلما وصفه وحدد موضعه، قالت له: "يلوح لي أنك مصيبٌ في ظنك، لكنك ذكرت أن فارساً خرج من ذلك القصر وعاد إليه، وليس في قصر الأمير سعيد رجال".

فقال: "لما سألتها عن ذلك الفارس، ذكرت لي أنها ستحدثني بأمره في فرصة أخرى، ولم أفهم مرادها، وأكبر الظن أنها هي ذلك الفارس".

قالت: "وأنا أيضاً لم أفهم مرادها، على أني لا أستبعد أن تكون هي التي نادتك وحذرتك أولاً ثم خرجت بنفسها ملثمةً لمساعدتك، فإني أعلم أنها تحسن ركوب الخيل وشجاعتها يعز نظيرها حتى في الرجال".

فسر غريب لذلك لأنه رأى فيه باباً لإنفراج المشكلة، ثم عاد هو ووالدته إلى حيث كان يجلس أمين بك، فقصت عليه قصة غريب وفتاة القصر، وجلس الثلاثة يتشاورون في الأمر، فاتفقوا على أن يخطبوا الفتاة من أبيها حالما يعود من سفره مع الأمير بشير.

أما غريب فلم يعد يستطيع صبراً على بعد الفتاة وأحس أنه مشتاق إلى رؤيتها، فإن تلك النظرة كانت كافية لارتباط القلبين، ولكنه كان يمسك نفسه محافظةً على كرامة الفتاة.

فلما عاد أبوها من ذلك السفر وعاد الأمير بشير أيضاً، تفاوض أمين وبك والأمير في شأن خطبة الفتاة من أبيها، فتوقف الأمير بشير عن الجواب، فارتاب أمين بك في الأمر ورغب إليه أن يجيبه بصراحة فقال: "إن الفتاة تربت أحسن تربية، وهي كاملة الأوصاف، غير أني لا أدخّل في أمر خطبتها فإذا شئتم فأخطبوها أنتم من أبيها، أما أنا فلا أكلمه".

فقال أمين بك: "قد كنت أعلم أن سعادتك تختص ذلك الأمير بكثير من الثقة والإعزاز وهذا ما قوى رغبتنا في خطبة ابنته لغريب".

فقال الأمير: "كنت كذلك، أما الآن فقد علمت عنه ما أوجب نفوري منه، فلا يمكنني مخاطبته في شأن تلك الخطبة".

فقال أمين بك: "إذا كانت الحال كذلك، فنحن في غنى عن تلك الفتاة،

ولا سيما أن غريباً لا يعرفها ولم يرها إلا مرةً واحدةً".

ولم يكن أمين بك يعلم مقدار ما كمن في قلب ولده من المحبة للفتاة، فلما رجع إلى امرأته وولده وروى لهما ما سمعه من الأمير بشير، تكدر غريب لذلك، وكانت الأميرة سلمى تحب تلك الفتاة وتجلها كثيراً، ولكنها لم تر مراجعة الأمير بشير، ولا سيما بعد أن جاراه أمين بك في ذلك".

أما غريب فأظلم الضياء في عينيه ووقع في ارتباك عظيم، ولم يعد يدري كيف يحل تلك المشكلة لكنه تجلد وقال في نفسه: "ما لا تقدر على قضائه فالزمن يقضيه".وأخذ يصبر نفسه منتظراً باباً للفرج، فلاح له أن أفضل وسيلة إنما هي مصالحة الأمير ووالد الفتاة، فأخذ يسعى سراً في ذلك وهو في خوفٍ من أن تخطب الفتاة لغيره.

★★★

جاء إبراهيم باشا إلى بيت الدين لجمع أسلحة طائفة الدروز سنة ١٨٣٢، فكتب الأمير إلى جميع أعيان الدروز بأن يطيعوا الأمر ويسلموا أسلحتهم.

ونزل إبراهيم باشا خارج دير القمر في خيام أعدت لذلك. وكان غريب قد حاول مشاهدة الفتاة التي علق بها فؤاده، كما حاول أن يصلح بين أبيها وبين الأمير بشير، فلم تكلل محاولاته في هذا وذاك بالنجاح.

واتفق أن التقى يوماً بأبيها، وكان الأمير سعيد يحب غريباً لكثرة ما سمع عنه من الثناء. وكان التقاؤهما في أحد البساتين فأخذا بأطراف الحديث حتى أظهر الأمير سعيد سبب النفور الذي بينه وبين الأمير بشير، فقال غريب: "لدي سر أريد أن أفضي به إليك".

فقال الأمير سعيد: "قل ما بدا لك".

قال: "إني كنت اتفقت مع والدتي على أن تخطب لي ابنتك لعلك ترضى بأن تكون رفيقة حياتي، ولما فاتحنا الأمير بشيراً ظهر لنا منه أنه لا يعارض في الخطبة، على ألا يتدخل هو في الأمر، وطبعاً لا يليق بي أن آتي عملاً لا

يرضاه الأمير، وإني أعترف لسيادتكم بأنني أحببت ابنتكم حباً شديداً، إذ رأيتها مناسبة لي، كما أن والدتي تحبها كذلك وتجلها". ورأينا الوسيلة الوحيدة لحل هذه المشكلة أن يتم الصلح بين الأمير وبينك، فما قولك؟".

فتأوه الأمير سعيد وصمت هنيهة ثم قال: "لو أنك خاطبتني في هذا الأمر منذ يومين لهان كل صعب، فإن الخلاف الذي بيني وبين الأمير لا يصعب زواله، وإنما هناك مشكلة أصعب من ذلك كثيراً".

فاختلج قلب غريب وقال: "وما هي تلك المشكلة؟".

فقال الأمير سعيد: "إن إبراهيم باشا بعث إلي مساء أمس وكيله حنا بك البحري، خاطباً ابنتي لأحد كبراء ضباطه المقربين منه، فلم يسعني إلا القبول، وتواعدنا على أن يأتيني بذلك الضابط لأشاهده الليلة في منزلي، وهذا سر أرجو كتمانه".

فاضطرب غريب وكاد يتميز من الغيظ وثارت في صدره ثائرة الانتقام، وشعر بأن تعقد مسألة زواجه بابنة الأمير سعيد لم يزد إلا هياماً بها، فقال الآن: "والآن ماذا أصنع يا سيدي؟".

فقال الأمير: "أنا أكثر ارتباكاً منك، ولا أستطيع رفض أمر إبراهيم باشا، رغم أني لا أعرف أصل ذلك الضابط وفصله، وابنتي عزيزة عندي لأنها وحيدتي، فكان يسعدني أن أزوجها منك".

فحار غريب في أمره وأطرق هنيهةً ثم قال: "متى يأتي ذلك الضابط إليك؟".

قال: "موعدنا الليلة بعد الغروب بقليل". قال: "حسناً". وودعه وخرج.

وسولت الغيرة لغريب أن يتعرض لذلك الضابط في طريقه إلى قصر الأمير سعيد، ويخاطبه في شأن الفتاة ليرجعه عن خطبتها باللين أو العنف، بل حدثته نفسه بأن يقتله إذا لم يقبل العدول عن خطبة الفتاة، ولكنه عاد فرأى أن ذلك لا يتفق مع الشرف والشهامة.

وظل ساعات تتنازعه عواطفه المتضاربة ثم قر رأيه على أن يجيب داعي قلبه

فيلقى ذلك الضابط ويتهدده في الطريق ويرى ما يكون منه.

فلما كانت الساعة الأولى بعد الغروب، لبس غريب ثيابه وهم بالخروج من البيت، فسألته والدته عن جهة مسيره فذكر لها أنه ذاهب لزيارة أحد أصدقائه في معسكر إبراهيم باشا فقالت: "هل نسيت ما حل بك منذ حين من قطاع الطريق؟".

فقال لها: "لم أنس ذلك، ولكن لكل زمان دولةً ورجالاً، وفي وجود إبراهيم باشا وجنوده في هذه المنطقة ما يكفي لمنع مثل تلك الحوادث".

فقالت: "سر في حراسة الله".

فسار وقد أخفى سلاحه تحت ثيابه، ولما خرج من بيت الدين تنكر ووقف في الطريق المؤدية إلى قصر الأمير سعيد ليقابل الضابط المصري حين يجيء.

وبعد الغروب بقليل رأى شخصاً قادماً وحده، قاصداً إلى قصر الأمير سعيد، فتأمله فإذا هو في زي الضباط المصريين وهو السراويل المعقودة تحت الركبتين والزنار الأحمر العريض وعلى رأسه الطربوش التونسي، فلما رآه غريب خفق قلبه وارتعدت فرائصه عن شدة التأثر، ثم اعترض طريقه وحياه، فرد الضابط التحية في أدب، فقال له غريب: "هل تشعل لي هذا الغليون". وأشار إلى غليونه.

فقال الضابط: "حباً وكرامةً". وأخرج زناداً وصواناً أشعله وقدمه لغريب ليشعل غليونه، فاغتنم غريب تلك الفرصة وتفرس في الرجل على ضوء الصوفان المشتعل، فخيل إليه أنه رأى ذلك الوجه من قبل، ولكنه لم يستطع أن يتذكر أين كان ذلك لشدة انشغاله بما هو فيه.

فقال: "إلى أين أنت ذاهب في هذا الليل؟".

فقال الضابط متلطفاً: "هل جرت العادة هنا بأن تعترضوا الناس في طريقهم لتحاسبوهم على نياتهم؟".

فقال غريب: "أجب عن السؤال أولاً، وسأطلعك على الغرض منه بعد

ذلك".

فقال الضابط: "ولكني لا أرى مسوغاً لهذا السؤال، ثم أحب قبل كل شيء أن تعلم أنك تخاطب ضابطاً من ضباط إبراهيم باشا".

فخيل إلى غريب أنه سمع صوت هذا الضابط من قبل، وقال: "أنا أعلم ذلك، وإذا كنت لا تريد أن تجيبني عن هذا السؤال فلا أقل من أن تخبرني باسمك؟".

فابتسم الضابط وقال: "اسمي سالم أغا".

فقال غريب: "سالم أغا؟ صديقي سالم. أهلاً وسهلاً بأخي وحبيبي، أأنت هو الضابط الذاهب إلى قصر الأمير سعيد؟".

فقال سالم: "الأمير غريب؟ أية مصادفة جميلة هذه؟". ثم هم به وعانقه وأخذا يتبادلان القبلات ذاهلين صامتين إلى أن قال سالم: "ما الذي جاء بك إلى هنا؟ وماذا كان غرضك من التعرض لي؟".

فقال غريب: "كنت أنتظر مرور أحد الناس من هنا، وقد حسبتك إياه، فإلى أين أنت ذاهب؟".

قال: "إلى بيت الأمير سعيد شهاب، أليس هذا بيته؟".

قال: "نعم إنه هو، وسأوصلك إليه".

ثم أخذ بيده مرحباً به، ومضى وهو يحدثه حديث المودة والوفاء، وقد سكن جأشه وخمدت في صدره عاطفة الانتقام، وصمم على أن يتنازل عن خطبة الفتاة إكراماً وعرفاناً بجميله القديم معه".

وما زالا سائرين حتى بلغا باب القصر فطرقاه، فجاء الأمير سعيد لاستقبالهما، فلما رآهما معاً عجب غاية العجب، وخشي أن يترتب على ذلك أمر لا تحمد عاقبته، لكنه تجلد وأدخلهما غرفة الاستقبال، فجلسا وقدمت لهما القهوة والتبغ، وهما لا ينقطعان عن تبادل السلام والحديث فيما جرى لهما أثناء افتراقهما الطويل، كل ذلك والأمير سعيد ينظر إليهما ويسمع حديثهما في دهشة وذهول.

وأخيراً التفت غريب إلى الأمير سعيد وقال له: "عفواً يا جناب الأمير، لقد جئناك في هذه الليلة لأمر ذي بال، وأملنا أنك لا تردنا خائبين".

فقال: "إني رهن إشارتكما، ولكما الأمر وعلي الطاعة".

فقال غريب: "إني جئت ألتمس منك أن تسمح بقبول خطبة أختي سعدى ابنتكم لأخي سالم أغا البطل الصنديد والشهم الغيور، وإذا كنت لا تعرفه، فإني وأبي قد خبرنا همته، وتحققنا أنه ممن خصهم الله بالشهامة والنخوة، ولعل إبراهيم باشا قد أخبرك عنه بما فيه الكفاية، وما قصدنا بهذا الطلب إلا التشرف بالقرب من سيادتكم فإن كريمتكم جوهرة ثمينة لا مثيل لها، ونحن نعلم أنها تعز على كثيرين غيرنا ولكن ثقتنا بلطفكم تجعلنا نؤمل ألا تضنوا علينا بهذه المنة".

فذهل سالم أغا، لعلمه بأن مسألة خطبته لا يعرفها أحد غير إبراهيم باشا والأمير سعيد. ولم يكن الأمير سعيد أقل دهشة لعلمه أن غريباً كان ناقماً على سالم أغا من أجل تلك الخطبة!

وشعر غريب بحيرتهما فابتدرهما بالكلام قائلاً: "لا تعجبا من توسطي في هذا الأمر، فإن الأخ يجب أن يساعد أخاه في مثل هذه المهمة، وأنا أحسب نفسي سعيداً إذا تم هذا الأمر على يدي".

ثم أشار إلى الأمير سعيد أنه يريد أن يخلو إليه، فمضى به الأمير إلى حجرة أخرى فابتدره غريب قائلاً: "إني كنت عازماً على الاقتران بكريمتكم، وكنت أعد هذا منتهى السعادة لي، ولما أخبرتني بأن هناك آخر خطبها نقمت عليه واعتزمت الإيقاع به، ثم فوجئت بأنه من أعز أصدقائي بل هو أخي وقد أنقذني من الموت وأظهر من الشهامة ما لا أنساه مدى العمر، وطالما كنت أتمنى أن أكافئه على جميله، فلما علمت بأنه هو الراغب في الاقتران بكريمتكم تغلبت علي عواطفي وجئت معه لأساعده في نيل ما يريد. وهو لا يعلم بما جرى. فهل لك أن توافقني على زفافها إليه وإن يكن ذلك مخالفاً لعوائدنا

وتقاليدنا التي تقصر زواج بنات الأسرة على أبنائها؟".

فعجب الأمير سعيد من أمر هذا الاتفاق، وقال لغريب: "الحق يا ولدي أني لم أشاهد مثل هذه الشهامة قط، وهكذا يكون الرجال. وأني طوع أمرك. على أني أصارحك الآن بأني خاطبت ابنتي في هذا الأمر، فرأيتها تميل إليك ميلاً حقيقياً، وقد قصت علي ما جرى لها معك يوم أحاط بك أولئك الفرسان ونجوت منهم فرأت منك لطفاً ونبلاً، وأخشى أنها لا توافق على الزواج من سواك".

فخفق قلب غريب وقال: "إني شاكرٌ لها عطفها الكريم، وأؤكد لك أن عندي أضعاف ما عندها، ولذلك كنت مصراً على طلبها منك، وقد صبرت على ما في قلبي وقتاً طويلاً، ولكن يلوح لي أن المقادير لم تكتب لي نصيباً فيها، ولذلك، أعتبر كريمتكم من الآن شقيقةً لي، أحبها محبة الأخ لأخته، وأرجو أن تلح عليها في قبول سالم أغا، فأنه ممن يعز أمثالهم، وأؤكد لك أيضاً أن أختي سعدى ستسر به وستكون سعيدة بالعيش معه، وزد على ذلك أن إبراهيم باشا قد خطبها لسالم أغا، ولا بد من إجابة طلبه اتقاء غضبه فإنه رجلٍ غضوب سريع الانتقام، وألتمس منك على كل حال ألا تدع سالماً يعلم شيئاً من أمر خطبتي لها".

فنهض الأمير سعيد وعانق غريباً وقبله قائلاً: "لله درك من شهمٍ نبيل، إني لم أشاهد طول عمري مثل هذه الشهامة".

فقال غريب: "هل لك أن تجيبني عن سؤال آخر بسيط؟". قال: "قل".

قال: "كانت كريمتكم قد وعدتني بأن تذكر لي اسم الفارس الذي خرج من القصر لمعاونتي، فمن هو؟".

فتبسم الأمير سعيد وقال: "لا أخفي عليك أنها هي التي نادتك وحذرتك، ولما كنت أنت في تلك المعركة كانت تنظر إليك من إحدى النوافذ، فلما رأت ما أحدق بك من الخطر، ولم يكن في البيت من الرجال من نبعثه لإنقاذك، تزيت هي بزي الرجال ونزلت بنفسها لتنشيطك ولكنها لم ترد أن

تقول لك ذلك حياء منها".

فازداد غريب إعجاباً بسعدى، وعجب لجمعها بين هذه الخصال الشريفة كلها، وحدثته نفسه بالعدول عن عزمه وتنازله عن خطبتها والاقتران بها، لكنه تذكر صداقة سالم أغا وفضله عليه، فاستسهل كل صعب في سبيل مكافأته، وقال للأمير سعيد: "أنني عاجز عن شكرها، وقد رأيت أنها بذلك تليق أن تكون زوجة لصديقي سالم أغا".

وكان سالم أغا قد ارتاب في أمر إختلاء غريب والأمير سعيد، وفيما هو يفكر في ذلك دخل عليه الخادم بالقهوة فتناولها، وكان في أثناء ذلك ينظر إلى فرش القاعة وأثاثها، وفكره مشغول بأمر الخلوة بين غريب والأمير وماذا عسى أن يكون حديثهما خلالها.

فلما أتم شرب القهوة أرجع الفنجان إلى الخادم وسأله قائلاً: "هل الأمير غريب من أقارب الأمير سعيد؟".

فقال الخادم: "نعم ياسيدي، فإن كليهما من أسرة شهاب، وإذا كانت القرابة بينهما بعيدة، فإنها ستصير قريبة بعد حين".

فقال سالم: "ماذا تعني ذلك؟".

فتلفت الخادم إلى باب الحجرة لئلا يكون أحد قادماً، ثم قال: "إن الأمير غريباً خطب ابنة الأمير سعيد، وعما قريب يكون صهره".

فبغت سالم أغا، وكادت تغلبه عواطفه، لكنه تجلد وأعاد السؤال قائلاً: "أأنت على يقين من ذلك؟". فقال الخادم بصوت منخفض: "نعم يا سيدي، وقد سمعت أباها يكلمها في ذلك الشأن اليوم قبل الغروب بقليل".

فذهل سالم أغا وداخله شك في مرافقة غريب له وما سمعه من حديثه مع الأمير في شأنه، وقال في نفسه: "لعلهما اختليا للمحادثة في ذلك فيجب علي أن أتنازل عن الفتاة لغريب، لأنه أحق مني بها إذ هو قريبها ومن الأمراء مثلها".

وفيما هو في ذلك دخل الأمير سعيد وغريب يلوح على وجهيهما

علامات السرور والانبساط، فوجدا سالماً مرتبك الأفكار، فلما جلسا قال الأمير سعيد لسالم أغا: "إني مسرورٌ جداً لما سمعته عن جنابك من الأمير غريب، ولذلك أعد نفسي سعيداً إذا أتيح لابنتي أن تكون خادمة في بيتك لا زوجةً لك فقط، فأنا من الآن أدعوك صهري".

فأجاب سالم أغا قائلاً: "إني مدين لجنابك بهذه المنة الكبرى، كما إني عاجز عن شكر صديقي الأمير غريب، ولكن هناك امراً يخجلني أن أصرح به الآن بعد أن تذكرته ولم يعد في الحسبان".

فقال الأمير: "خيرٌ إن شاء الله".

فقال: "لا أعلم إذا كان خيراً أو شراً، وهو أني مسافرٌ من هذه الديار في أقرب وقت لا أعلم إن كنت أعود منها حياً أم لا، ولذلك أرى الأوفق أن نؤجل أمر الاقتران حتى أعود".

فقال غريب: "وما هو هذا السفر؟".

فقال سالم أغا: أنت تعلم أن الدولة لا تزال تسعى في إخراج إبراهيم باشا من هذه الديار، وإن تكن في الظاهر قد ولته إياها، ولن نلبث قليلاً حتى تبعث جنداً كبيراً لإخراجه، لأن الدول الأجنبية غير راضية ببقائه هنا".

فقال غريب: "هب ذلك صحيحاً فإني أسعى بكل ما في وسعي لإخراجك من جند إبراهيم باشا، كي تبقى معنا هنا ونعيش معاً، ونتخلص من الحروب، على أني لا أظن إبراهيم باشا طلب زواجك دون أن يكون قد اعتزم إعفاءك من الحروب والأسفار".

فأفحم سالم أغا، ولم يدر كيف يجيب، وكان يريد بتأجيل عقد القران أن يمهد لتنازله عن الفتاة لغريب، فانتحى به ناحيةً وقال له: "إني لفي عجب مما ظهر لي منك هذه الليلة، فلا أدري من أخبرك بعزمي على الاقتران بابنة الأمير، وقد ازداد عجبي لما علمت أنك كنت قد خطبتها لنفسك فلماذا تقترن بها؟".

فقال غريب: "إن الأمير بشيراً لم يوافق على ذلك لنفور بينه وبين الأمير

سعيد".

فقال سالم أغا: "أنا أسعى في إزالة هذا النفور، وذلك أمر سهل".

فقال غريب: "إن ذلك النفور لا تمكن إزالته، ولم يعد ممكناً لي الاقتران بها، فهي نصيبك وأرجو ألا تراجعني في هذا الأمر، لأن اقتراني بها أصبح مستحيلاً، فالأولى أن تأخذها أنت فإنها تليق بك".

فرأى سالم أن لا أمل في إقناع غريب، فتظاهر هو بأنه اقتنع بحجته، وتواعدا على أن يعودا لإتمام الخطبة في الغد، وقد أضمر سالم أن يتخلى عن الفتاة لغريب.

فلما كان الغد، مضى غريب إلى الموضع الذي اتفق معه سالم على اللقاء فيه ليذهبا معاً إلى قصر الأمير سعيد، لإتمام الخطبة. ولبث ينتظره ساعة بعد الموعد المحدد، لكنه لم يأت. فعجب غريب وساوره الشك في السبب الذي حدا بصديقه سالم إلى إخلاف موعده. وبقي ينتظره ساعات حتى جاء المساء ويئس من مجيئه، فعاد إلى بيت الدين، وفي نيته أن يذهب إليه في المعسكر صباح اليوم التالي ليرى ما أخره.

وفيما هو يهم بمغادرة بيت الدين في الصباح، وفكره مشغول بأمر سالم، إذا بهذا قد أقبل عليه وهو يبتسم، فحياه مرحباً به، وسأله عما أخره عن موعد أمس، فقال سالم: "كنت منهمكاً في حفلة زفافي".

فبغت غريب وسأله: "أي زفاف تعني؟". فقال: "لقد انتهى الأمر يا صديقي، وعقدت قراني ليلة أمس بفتاة أخرى، فالعاقبة عندكم في المسرات".

فعجب غريب لذلك وكاد ألا يصدق ولكن سالماً أثبت له صحة دعواه، ثم قال له: "والآن هيا بنا إلى قصر الأمير سعيد، لنتم خطبة كريمته لمن هو أولى بها".

فأدرك غريب أن سالم أغا تزوج حتى لا يبقى هناك مجال للكلام في مسألة اقترانه بسعدى، فتنهد وقال له: "أيليق ذلك بك؟".

قال: "لا يليق بي إلا هذا، وهذه سعدى عروسك بارك الله لك فيها، وإن سروري باقترانك بها سيكون أعظم، ولا سيما لعلمي أنها لو خيرت بيننا لما اختارت سواك، فلا يليق بي أن أمنعها ممن تحبه، وها قد قضي الأمر فهيا بنا".

فعانقه غريب وقبله مثنياً على كرم أخلاقه، ثم قال: "تعال لأعرفك إلى أبي، ونرى ما يستقر عليه الأمر، وإني لمعجب بشهامتك".

فهم سالم به وقبله وقال: "والله لا أراني إلا مقتبساً من بحرك ولم أسمع أن شاباً تخلى عن حبيبته لأحد سواك".

وفيما كان أمين بك والأميرة سلمى يتبادلان الحديث في شأن خطبة سعدى ابنة الأمير سعيد لإبنهما غريب، سمع وقع أقدام بالقرب من الحجرة، ثم إذا بغريب قد دخل ومعه ضابط مصري فنادت سلمى: "غريب؟". فقال: "نعم يا أماه، تعالي فلا حاجة إلى التحجب فالذي ترينه معي من أعز أصدقائي بل هو أخي بعهد الله".

ثم أخذ بيد سالم، وقدمه لوالديه، وروى لهما ما كان من أمره وأمر زواجه وما في عمله هذا من الشهامة والنخوة، فأعجبا به وازدادا محبة له، وفرحاً بعدوله عن خطبة سعدى لأنهما كانا يحبان الفتاة ويرغبان في زواج غريب بها.

ثم أخذ الجميع في أحاديث السمر، حتى حان وقت الغذاء فتناولوه، وألحوا على سالم في أن يمكث لتناول العشاء وقضاء السهرة معهم، ولا سيما أن الليلة مقمرة صافية الجو، فلم يسعه إلا القبول، وبعد العشاء أمر غريب بعض الخدم فجاءوهم بالوسائد ليجلسوا عليها في ضوء القمر، فجلسوا وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث بعد أن ملأ أمين بك غليونه وملأ غليوناً لكل من سالم وغريب، وجيء لهم بالقهوة.

وأخيراً قال سالم أغا: "كنت أظن أن الأمير بشير والد أخي غريب".

فقال غريب: "نعم هو والدي بالتربية، أما والدي الحقيقي فهو هذا الشيخ". ثم استأنف الحديث قائلاً لوالده: "هذا هو الصديق الذي أنقذني من سجن عكا كما أخبرتكم منذ بضع سنين".

فقال أمين بك: "يلوح لي من ملابسه أنه من ضباط إبراهيم باشا، ونعم الرجل هو، نطلب من الله أن يقدرنا على مكافأته".

ثم قال له: "هل الجنود المصريون سيقيمون طويلاً في لبنان؟".

فقال سالم أغا: "لا أظن إقامتهم تطول بعد أن يتم جمع أسلحة الدروز، وقد علمت أنهم سيجمعون أسلحة النصارى أيضاً توطيداً للأمن". فقال أمين بك: "وهل تظن إبراهيم باشا يتوقع خروج هذه الديار من يده؟".

قال: "إنه يشك في نية الحكومة العثمانية، فهي وإن تكن قد ولته هذه البلاد بأوامر شاهانية حسب إقرار مؤتمر كوتاهيا الذي عقد في ١٤ مايو ١٨٣٣، لا ترى ترك الحكم له لأسباب كثيرة، منها أن الباب العالي لم يوافق على ذلك إلا لوقف إبراهيم باشا عن التقدم إلى الأناضول والاستيلاء على أملاك الدولة هناك، والذي أراه أن هذا البطل أعظم من ذلك كثيراً فتراه على كثرة ما يقاسيه من القلاقل من ثورات أهل سوريا المتواصلة لا ينفك ناظراً إلى ما وراء ذلك ويخشى أنه لا يفوز في الأناضول كما فاز هنا، إذ ليس له هناك عضد مثل سعادة الأمير بشير".

فقال أمين بك: "عجباً لهذا الباسل، فإني أراه أشجع من أبيه".

فقال سالم أغا: "قد سمعت الناس يتحدثون بشجاعة أبيه من قبله، ولعل الفرق بينهما أن والده أرق جانباً وأحسن سياسة منه، أما هو فأقرب إلى رجال الحرب من أبيه. فمحبة الناس لأبيه مقرونة بالاحترام أما محبتهم له فمقرونة بالخوف. وقد شهدته في وقائع عدة ببلاد اليونان وعجبت لبسالته، ولولا العمارتان الإنجليزية والفرنسية لكان فوزه تاماً في نافارين رغم ما أظهره اليونان من الهمة والنشاط في الدفاع".

— ١٤ —

حرب المورة ونكبة الإنكشارية

التفت غريب إلى سالم وسأله: "ما سبب ثورة اليونان، هل تعرف عنها

شيئاً؟".

فقال سالم أغا: "نعم لأني أخذت إلى تلك الديار وربيت فيها، فقد كانت بلاد اليونان ولاية من ولايات الدولة العلية، غير أن الشعب اليوناني شعب قديم، وكان لا يفتأ يذكر أيام دولته القديمة وما كان من رفيع مجدها وعظيم سطوتها، واتفق في ذلك العهد أن ولاية الصرب التي كانت من ولايات الدولة العليا استقلت بأحكامها استقلالاً محدوداً بمساعدة الدولة الروسية لارتباطها معها بجامعة الدين والجنس. فلما رأى اليونان ذلك ثارت في نفوسهم محبة الاستقلال، فأخذوا يتكاتبون في سائر أنحاء العالم، لأن الشعب اليوناني كثير الأسفار كما تعلمون، فألفوا جمعيات سرية في روسيا والنمسا واليونان وغيرها، وكانوا يدخلون فيها كل الشبان اليونانيين ودعوها (جمعية الأصدقاء). وكنت أنا في أثينا خادماً في أحد بيوت الأعيان، وسني إذا ذاك حوالي الخامسة عشرة، فدعيت يوماً مع سيدي، ولا تعجبوا لقولي أني كنت خادماً لأن ذلك لم يكن باختياري كما سأخبركم، فلما وصلنا إلى محل الدعوة دخلنا قاعة منعزلة اجتمع فيها عدد غفير من الرجال وفي صدرها رجل جالس، وأمامه مائدة فوقها كتاب أظنه التوراة، فدعا كلاً منا على حدة، فلما دنوت منه قال لي: (ضع يدك فوق هذا الكتاب). ففعلت ثم أخذ يلقنني قسماً أذكر منه قوله (أقسم بحضرة الإله الحقيقي قسماً ثابتاً أني سأواظب على الأمانة والإخلاص لجمعية الأصدقاء في جميع الأمور، وأني لا أبوح بشيء من أعمالها أو أقوالها، ولا أدع أحداً من أصدقائي أو أقربائي يعلم بأني عالم بوجودها، وأقسم بأني سأمحي الكراهية التي في قلبي للمستبدين بوطني وأتباعهم ونصرائهم، وأني سأتخذ كل وسيلة لإبادتهم. وأخيراً أقسم بك يا وطني المقدس العزيز وبما قاسيته من المشاق والعذاب، وبما سكبه أولادك من الدموع السخينة أثناء قرون، وأقسم بما انتظره من الحرية المستقبلة لك، أن أقف نفسي لأجلك، وأن أجعلك من الآن فصاعداً محور أفكاري ومقاصدي، وأجعل اسمك نبراسي في جميع أعمالي وأكتفي بسعادتك جزاء لجهادي).

"وقد أقسم جميع من حضروا الاجتماع ذلك القسم. وعلمت أن تلك

الجمعية نشأت أول أمرها في (أدسا) برياسة رجل يقال له (نقولا سكوفاس) من تجار تلك المدينة. ولعلها نشأت هناك بدسيسة روسية. وبقيت الأمور على ما هي إلى مارس سنة ١٨٢١ فابتدأت الثورة في ولايات الدانوب، بدأ بها ضابط يوناني في خدمة الدولة الروسية، حتى آل الأمر إلى نشر لواء العصيان في جهات الدردنيل، وكانت الأستانة إذ ذاك في اضطراب عظيم لانقسام أربابها بعضهم على بعض، حتى أن بعضهم سعى في حرقها، فلما علم أهلا بما فعله اليونانيون احتدمت في قلوبهم شعلة التعصب حتى بلغنا ذات يوم أن بطريرك القسطنطينية غريغوريوس ذبح عند باب الكنيسة في عيد الفصح، وأن جثته أعطيت لليهود يجرونها في الأسواق. ثم علمنا بمقتل غيره من الإكليريكيين، فاشتعل اليونانيون غيظاً، وجاهروا بالعصيان والانتقام من الدولة، فلاح لجلالة السلطان محمود إذ ذاك أن يتخذ جنداً نظامياً يعتمد عليه في الحروب، على غرار ما فعل عزيز مصر، فاعترضه جنود الإنكشارية، وأنتم تعلمون أن هؤلاء من الأسرى النصارى المفصولين عن أهلهم قبل سن البلوغ، وكانوا يعلمونهم ويثقفونهم بقواعد الديانة الإسلامية وعلومها، وقد باركهم (حاجي بكطاش) مؤسس دراويش الطريقة البكطاشية، فنموا وتكاثروا وكانوا عوناً كبيراً للدولة في سائر حروبها وفتوحاتها، لكنهم أصبحوا حملاً ثقيلاً على عاتقها لفساد أمرهم وتمردهم.

"فلما أراد السلطان محمود اتخاذ النظام الحديث في جنده اعترضه هؤلاء الإنكشارية لاح له أن يسعى في التخلص من شرهم، فجمعهم مرةً في ساحة (أتميدان) فلما اجتمعوا طلب رؤوس زعمائهم فاعترضوا جميعاً على ذلك الطلب، وكان السلطان قد صمم على اتخاذ الوسائل القطعية فإما أن يبيدهم وإما أن يدغن لهم، فلما رأى منهم ذلك العصيان أمر بنشر (السنجق الشريف) وهو العلم النبوي، فانحاز إليه جميع المسلمين إلا العصاة. فنقل السنجق إلى جامع أحمد بقرب أتميدان، ووقف بجانبه السلطان وقضاة

العاصمة وغيرهم. وهناك أخرج السلطان فتوى بقتل الإنكشارية فقتلوا في ثلاث ساعات وتخلصت الدولة من شرهم".

فقال أمين بك: "قد سمعنا بمقتل الإنكشارية، كما سمعنا بمقتل الأمراء المماليك بمصر منذ خمس وعشرين سنة، فكأن السلطان محموداً قد فعل ذلك اقتداء بواليه محمد علي عزيز مصر، كما اقتدى به في تدريبه الجند على النظام الجديد".

فلما ذكر أمين بك اسم المماليك تأوه سالم أغا تأوهاً خفياً وقال: "أما اليونان فبقوا ست سنوات يحاربون الدولة العليا بمساعدة سرية من الدول الأوروبية، وفي آخر الأمر جاهرت تلك الدول بالتوسط، وهي روسيا وإنجلترا وفرنسا، وعقدت مؤتمراً في ٦ يوليو ١٨٢٧بلندن، فقرر أن يتحرر اليونان، وأحلقوا هذا القرار بعماراتهم لتنفيذ ذلك بالقوة الجبرية، فتنحت العمارة الروسية وتقدمت العمارتان الإنجليزية والفرنسية إلى نافارين، حيث كانت العمارة العثمانية بقيادة إبراهيم باشا فحدثت واقعة في ٢١ أكتوبر سنة ١٨٢٧ انكسرت فيها عمارة إبراهيم، واستقلت اليونان.

"أما أنا فقد كنت في نافارين قبل مجيء العمارتين فنزلت إلى إبراهيم باشا وسلمت له خاضعاً".

فقال أمين بك: "الحق أنك أفدتنا إفادة عظيمة عن استقلال المورة أو اليونان، ولكن اسمح لي أن أسألك سؤالاً ربما كان تطفلاً مني، وقد جرأتني عليه بلطفك، وبما بينك وبين ولدي من مودة".

قال سالم أغا: "تفضل".

فقال: "إن تركك اليونان في حال فوزهم وانحيازك إلى إبراهيم باشا، لم أره سياسة حكيمة، أما كان الأفضل لك البقاء هناك مستقلاً؟".

فتنهد سالم وقال: "قد تركت تلك البلاد، إذ ليس لي فيها أرب، وليست هي وطني وليس لي فيها أهل، وإنما توجهت إليها بحكم الانفاق طوعاً لمطامع القرصان، وقد باعني بعضهم فيها بيع الأرقاء وكنت أترقب فرصة أتمكن بها من العودة إلى بلادي، فلم أستطع ذلك إلا عند مجيء إبراهيم باشا إلى اليونان

كما قلت لكم".

فقال غريب: "لعلك خرجت من بلادك صغيراً وعدت إليها كبيراً، فهل عرفت أهلك عندما شاهدوك؟".

فخنقته العبرات و لم يستطع الجواب، وندم غريب على سؤاله فقال له: "لا بأس عليك يا أخي، إننا جميعاً لك أهل وإخوان".

فقال: "إنما آلمني أني رجعت بعد المشقة والتعب، فلم أقف لوالدتي المسكينة على أثر". فقالت سلمى: "واحسرتاه على الأمهات وشقائهن، فهل تعلم والدتك الآن أنك على قيد الحياة؟".

فقال سالم: "لا أدري يا سيدتي، كما أني لا أعلم أهي على قيد الحياة أم لا، فقد مضت على فراقنا نحو خمس وعشرين سنة".

قالت سلمى:"لا شك في أنها إذا كانت حية تكون قد يئست من وجودك، ولكني أراك تذكر والدتك ولا تذكر أباك".

فقال: "لأني تأكدت أن أبي قد مات".

فقال غريب: "هل بحثت عن والدتك حيث تركتها؟".

فقال: "تركتها في مدينة عكا منذ ٢٥ سنة وقد بحثت عنها هناك طويلاً فلم أقف لها على أثر".

فلما سمعت سلمى ذلك خفق قلبها، لأنها تذكرت ما أصابها في تلك المدينة التي فقدت فيها ولدها سليماً ونظرت إلى زوجها نظراً خفياً، فرأته يتنهد تنهداً عميقاً وهو ينظر إليها بطرف عينه.

فقال غريب: "هل أنتم في الأصل من أهل الشام؟.

قال: "لا وإنما نحن يا أخي من سلالة قوم أفاضل من مصر، فقتل والدي هناك وحملتني والدتي وكنت في السابعة من العمر حتى أتت بي عكا، وهناك نزلت في قارب وحدي للنزهة فقذفتني الأمواج إلى البحر فمرت بي سفينة قرصان يوناني أخذوني وباعوني بيع الأرقاء لأحد التجار في نافارين، فربيت

فيها حتى كبرت".

فازداد خفقان قلب سلمى لما رأت من المشابهة بين هذه الحكاية وحكايتها، وأرادت التكلم فلم تستطع وكذلك شأن أمين بك".

فقال غريب: "يا للعجب، إننا نحن من مصر، وقد أصابنا مثل ما أصابك، فما اسم والدك لعل أبي يعرفه؟".

فقال سالم: "اسمه أمين، واسم والدتي سلمى".

فصرخت سلمى قائلة: "ولدي سليم حبيبـــي، مهجة كبدي". ورمت نفسها عليه وجعلت تقبله حتى أغمي عليها. وكذلك فعل زوجها، فبهت سالم ولكن تحركت فيه العواطف حالاً وتذكر صورتيهما بعد مضي هذه المدة، فترامى على أيديهما وجعل يقبلهما، والجميع يبكون من شدة الفرح.

فبهت غريب لذلك لأنه لم يكن يعلم أن له أخاً يدعى سليماً، ولكنه اهتم برش أبيه وأمه بالماء حتى أفاقا.

فقال غريب: "ما هذا؟ من أين نبت لنا هذا الأخ، وما بال الدهر يأتينا كل يوم بنبأ جديد؟".

ثم أهضهم إلى الغرفة حيث كان النور مشعلاً، وجعل يتأمل أخاه سليماً، ويقبله ويعانقه. ولا تسل عن قلب الوالدة والوالد في تلك الحال.

وكان سليم أقل ذهولاً من والدته لأنه كان قد يئس من الالتقاء بها فضلاً عن يأسه قبل ذلك من لقاء أبيه، فقضوا تلك الليلة في الحديث عما جرى لهم، ولم يناموا حتى أصبح الصباح فسار أمين بك إلى الأمير بشير وأخبره بالقصة، وطلب إليه أن يسأل إبراهيم باشا إعفاء سليم من العسكرية وإبقاءه في بيت الدين.

ثم عاد وأخبرهم بالسرور الذي شمل الأمير باجتماع شمل العائلة المشتتة وبعث الأمير إلى سليم (سالم أغا) وهنأه بلقاء أهله.

وبعد المحادثة مدة استأذن سليم في الانصراف لأن الأمير كان في اشتغال بالأحوال السياسية وثورات الدروز على الحكومة المصرية.

- ١٥ -

بعد اجتماع الشمل

خلا الأمير سعيد إلى ابنته سعدى بعد انصراف غريب وسالم من عنده، واطلعها على ما تم، وجعل يرغبها في خطيبها، فلما لم تبد جواباً تركها حتى الصباح، ثم عاد فسألها رأيها فترددت برهة ثم صارحته بأنها لو لم تكن قد أحبت غريباً ما ألقت نفسها إلى الموت من أجله، إلى أن قالت: "ومن يعرف ذلك الآخر وما هو أصله وفصله؟".

فقال الأمير سعيد: "ولكن يا ابنتي ما العمل في أمر إبراهيم باشا، هل يمكننا مراجعته؟".

فبكت سعدى رغم إرادتها، وحار أبوها، وعز عليه أن يجبر ابنته ووحيدته على الاقتران بمن لا تعرفه ولا تميل إليه، لكنه كان في الوقت نفسه يخاف غضب إبراهيم باشا.

ولما جاء وقت الغداء و لم تستطع سعدى تناول أي طعام لشدة كدرها. كل ذلك وأبوها يفكر في وسيلة لإنقاذها وإنقاذ نفسه من تلك الورطة.

وفيما هو في ذلك دخل الخادم يقول: "إن فارسين بالباب". فخرج لاستقبالهما فإذا هما غريب وسليم، فرحب بهما كثيراً ولكنهما قرآ على وجهه علائم الغضب والكدر، فلما استقر بهم المقام قال سليم: "قد جئناك بخبر غاية في الغرابة عندك، وأظنه يسرك وقد يكون موجباً لذهاب غضبك".

فقال الأمير سعيد: "وماذا عسى أن يكون ذلك؟".

قال: "إن سعدى فيما يلوح لي من نصيب أخي غريب، ويسرني أن أخبرك بأنه شقيقي؟".

فذهل الأمير سعيد و لم يفهم المقصود، فقص عليه قصة والديه من أولها إلى آخرها، فعلم الأمير سعيد إذ ذاك أن قرابة غريب لبني شهاب هي من قبيل الأم، وأن الإثنين أخوان.

ولا تسل عن قلب سعدى لما علمت بما تم لها من عودة حبيبها إليها.

وقضوا بقية ذلك اليوم معاً إلى المساء فتفاوضوا في أمر الاقتران فقال غريب: "الأولى أن يأتي والدنا الأمير ويدبر ذلك مع سعادتكم كما هي عادة هذه البلاد". وبعد العشاء والسهر انصرفا إلى البيت معاً.

وبعد حين سار أمين بك بعد أن استأذن الأمير بشيراً ومعه الأميرة سلمى إلى بيت الأمير سعيد، واتفقوا على وقت الاقتران.

وفي أواخر سنة ١٨٣٦ تم الاقتران باحتفال عظيم دارت فيه ألعاب السيف والعصي وركوب الخيل والجريد، واجتمع أهل القرى المجاورة بألعابهم وموسيقاهم ومشاهير رجالهم، وفيهم المهرة في لعب السيف الذين يقطعون به عصي الحديد الملفوفة باللباد، وفيهم من يقطع الثور الكبير نصفين بضربة، وفيهم من تفنن بالسيف حتى أنه كان يرمي منديلاً من الحرير الرفيع في الهواء ثم يضربه بالسيف فيقطعه شطرين، إلى غير ذلك من ألعاب السيوف.

وكان في مقدمة اللاعبين بعض مشاهير الفرسان ولاعبي الجريد، وغيرهم من أبطال الألعاب الرياضية التي برع فيها اللبنانيون.

وبالاختصار تم عرس غريب باحتفال عظيم دام عشرة أيام، كان بيت الدين في أثنائها كأنه شعلة نور لكثرة الأنوار، أما الموائد فلم ترفع ليلاً ولا نهاراً وكل ذلك على نفقة الأمير بشير، لأنه كان يحب أن يجبر قلب ابنة عمه الأميرة سلمى بزوجها وأولادها، فإن فرح هؤلاء لم يكن يقدر بعدما فاسوه من التعب والمشقة والأخطار.

وبقي أمين بك وزوجته وغريب رغم فرحهم يتذكرون ما حدث لسعيد خادمهم الأمين، وكيف ذهب ضحية شهامته ومروءته، وكأن الفرح الشديد هاج ذكرى أيام الشقاء فانقبضت نفس أمين بك لتذكره الساعة التي ضرب فيها سعيداً، وشعر بندم شديد لأنه لم يرجع على أثر الضربة ويبحث عن جثته لعل فيها رمقاً، فكان الاحتفال قائماً والناس في هرج ومرج بين ضاربي الآلات ولاعبي الألعاب الحربية، والمغنين، وأمين بك ساكت لا يكلم أحداً

إلا بما يضطر إليه جواباً على مهنئ أو رداً على سؤال.

وفيما هو في ذلك جاءه رئيس الدير المعهود وعلى وجهه أمارات البشر، فنهض أمين بك لتحيته، فقال له: "أراك يا سعادة البك في ارتباك وكدر فما هو سبب ذلك؟".

قال: "لست في ارتباك ولا في كدر لأني بحمد الله نلت ما كنت أتمناه من جمع الشمل، ولكن فرحي لم يتم".

فقال الرئيس: "وماذا ينقصه؟".

قال: "ينقصه ما لا سبيل إليه وأنا الجاني فيه".

قال: "عسى الله أن يفتح باب الفرج فإنه على كل شيء قدير".

قال أمين بك: "لا شك أنه قادر سبحانه وتعالى، وإلا فمن كان يرجو اجتماعنا بعد أن تشتت شملنا في أنحاء الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، ولكن ما أرجوه يا حضرة الرئيس بعيد المنال لأن الرجل الذي أود لقاءه مات وأسفي عليه، وقد قتلته بيدي". قال ذلك وتساقطت عبراته.

فتبسم الرئيس وضم أمين بك إلى صدره وقال: "أظنك تعني سعيداً خادمك الأمين. ألا فاعلم أنه لم يمت بل هو حي يرزق".

فبغت أمين بك، ولكنه عاد فظنه يقول ذلك على سبيل المجاملة لتخفيف حزنه فقال: "ما أظنه إلا مات لأن الضربة كانت قاضية".

فقال الرئيس: "لا بل هو حي يا ولدي، وإذا لم تصدق أريتك إياه رأي العين".

فظنه أمين بك يمازحه تخفيفاً لكربه فقال: "بالله دعنا من إثارة الأشجان، فإني لا أرجو رؤية سعيد ولا في المنام، ولكن شخصه نصب عيني ليل نهار".

فقال الرئيس: "بل الحق أقول لك، فإن سعيداً الآن في الدير عندي، وقد جئت لأبشرك بقدومه".

فلما سمع أمين بك كلامه خفق قلبه وانتصب واقفاً على قدميه وقال: "أين

هو؟ أرني إياه، هلم بنا إليه".

قال: "لا حاجة إلى ذهابك ها أنذا ذاهب لإحضاره". وخرج.

فهرول أمين بك إلى سلمى وغريب وسائر أهل بيته وأنبأهم بالخبر، فكادت قلوبهم تطير من الفرح، ولم يصدقوا الخبر لبعده عن المنتظر، أما أمين بك فأوعز إلى مباشري الاحتفال بأن يسيروا بالموسيقى ولاعبي السيف والخيالة جميعاً بموكب واحد لملاقاة سعيد قادماً من الدير، وسارت عائلة أمين بك برمتها وراء الجميع إلا النساء، وقد حولوا احتفال الزفاف إلى الاحتفال بملاقاة سعيد، وكان العريس في جملة المحتفلين فسار الموكب من بيت الدين وأصوات العازفين والضاربين والخيالة تكاد تبلغ عنان السماء.

فلما كانوا في منتصف الطريق قيل لأمين بك: "أن الرئيس وسعيداً قادمان". فتقدم هو وولداه حتى التقوا بسعيد فإذا به قد ترجل وهم بركاب أمين بك وقبله، والتفت يمنة ويسرة لعله يرى غريباً فرآه ولم يعرفه لأنه فارقه صبياً، وقد صار شاباً، فألقى غريب بنفسه بين ذراعيه وسلم عليه فعانقه سعيد وعيناه تذرفان دموع الفرح وقال لأمين بك: "أشكر الله على هذه المنة فإني طالما كنت أتمنى هذا اللقاء، وها قد رأيته بعيني فأحمد الله، ولكني أراكم قد بالغتم في إكرامي وما أنا إلا عبدكم ولست أهلاً لهذا الاهتمام".

فتقدم إليه أمين بك وقبله قائلاً: "ما أنت والله إلا أخ وأعز من الأخ، لأنك سعيت سعياً لا نستطيع مكافأتك عليه، فقد كنت سبباً لبقائنا كلنا ولولاك ما بقي أحد منا حياً".

فسكت سعيد احتراماً لكلام سيده، وبعد أن وقفوا هنيهةً في مثل هذه الأحاديث عادوا ماشين على الأقدام والموكب يسير بهم نحو بيت الدين، ولكن سعيداً كان في مشيه عرج وقد ظهرت على وجهه ملامح الشيخوخة والكبر فقال له أمين بك: "أحب أن أعرف كيف نجوت من تلك الضربة، وما أخرك عنا إلى اليوم حتى يئسنا من حياتك؟".

فتنهد سعيد وقال: "سأقص عليك الخبر قريباً، أما الآن فدعوني لأرتوي

من مشاهدة سيدي غريب، وقد علمت أنكم تحتفلون بعرسه فما أسعدني بهذا الاحتفال".

ثم نظر إلى سليم وقد استغربه وقال: "إني لم أعرف من هو هذا الشاب؟ وما أظنني رأيته قبل الآن، أو لعلي رأيته ولا أذكر".

فقال أمين بك: "هذا ولدنا سليم الذي أضعتموه في عكا".

فهم سعيد به وقبله وقال: "حبيبـــي أأنت سليم؟ سبحان الخالق العظيم، هاأنذا قد نلت من دنياي فوق ما كنت أرجو، لأني لم أرج قط أن أرى سليماً حياً، فهذا فوق ما كنت أنتظر والحمد لله".

ثم سأله عن سيدته فقيل له: "هي في خير تنتظر وصولك مع سائر أهل القصر في بيت الدين".

وما أتموا حديثهم حتى وصل الموكب إلى القصر، وخرج من فيه لملاقاتهم، وخرج أمين بك وسعيد إلى إلى دار الحريم فإذا بالسيدة سلمى في انتظارهم، فهم بيدها وقبلها فسلمت عليه ورحبت به وقالت: "إن فرحي بعودتك أكثر من فرحي باقتران ولدي غريب، لأنك الصديق الغيور".

فشكر فضلها وقال: "العفو يا سيدتي بل أنا عبدك وخادمك".

ثم جلسوا جميعاً وقد عاد الموكب إلى الاحتفال بالزفاف وتضاعف الفرح والسرور.

وبقي أمين بك مشغول الخاطر بالطريقة التي نجا بها سعيد، وسبب تأخره إلى ذلك الوقت، فلما استتب بهم الجلوس قال أمين بك لسعيد: "بالله ألا أنبأتنا كيف نجوت بعد تلك الضربة؟".

فقال سعيد: "لم أفق يا سيدي إلا وأنا مغلول في مكان كالسجن وحولي جماعة السودانيين من أهل شندي يتمتعون، وقد فهمت من مجمل كلامهم أنهم علموا بأني لست من إخوانهم واستدلوا على ذلك من خطابي لك وأنت شاهر السيف وقادم إلي، وكنت أسمع رطانتهم وأنا بين اليقظة والغيبوبة ثم

رأيتهم جاءوني بلبن ودقيق ضمدوا بها جراحي، ولكنهم ما لبثوا أن جاءهم الخبر بقدوم الجنود المصريين للانتقام منهم، فحملوني معهم مقيداً يريدون الانتقام مني، فتقدمت إليهم أن يتركوني وشأني أو يقتلوني، فأبو تركي مخافة أن أخبر المصريين بمخبآتهم، ولم يريدوا قتلي لأنهم كانوا ينتظرون أن يستفيدوا مني ببعض الأخبار.

"وكنت قد تشددت قليلاً فلما هموا بالمسير غافلتهم ذات ليلة وفككت قيودي وفررت من معسكرهم، وكنت أظنهم لم يشعروا بي فإذا بجماعة منهم قد لحقوا بي فأسرعت في العدو وأنا لا أزال ضعيفاً فأدركوني وقد أنهكني التعب، فساقوني وأعادوا الأغلال إلى رجلي ويدي، فعاد المرض إلي لشدة ما شعرت به من تعب الجسم وضيق الصدر.

"وما زلت على هذه الحال أياماً وهم تارةً يقيمون، وطوراً يرحلون في أواسط الصحراء، بين العطش والتعب والجوع.

"وفي ذات يوم تركوني في مكان كنا نزلنا فيه وساروا ولكنهم فكوا أغلالي قبل مسيرهم وعطف علي واحدٌ منهم فترك عندي شيئاً من الذرة وقليلاً من الماء.

"فبقيت في تلك الصحراء ضعيفاً نحيلاً لا أستطيع المسير ولا أقوى على النهوض، إلى أن تحققت دنو الأجل فتذكرتكم جميعاً، ولا سيما حبيبي غريب لأنه ربي على ذراعي، وهاجت الذكرى أشجاني فأخذت في البكاء والعويل ليلاً ونهاراً، ولم يكن لي من تعزية في تلك الأحزان إلا تحققي بقاء سيدي البك حياً، فدعوت الله أن يجمعه بأهل بيته، وأسفت كثيراً لأني لم أستطع إنباءه بمحل وجودهم.

"وقضيت أياماً على تلك الحال لا آكل ولا أشرب إلا أقل من القليل فضلاً عن خوفي واضطرابي مما كنت أسمعه من أصوات الذئاب والوحوش في أثناء الليل، فلما خارت قواي وتحققت قرب الوفاة خفت أن أموت في تلك الصحراء وتذهب جثتي طعاماً للوحوش فدببت على رجلي ويدي إلى حفرة

بالقرب مني وعولت أن أجعلها مرقدي عند موتي فتوسدها وقد هزل جسمي وجف دمعي من كثرة البكاء".

فلما وصل بحديثه إلى هذه العبارة ترقرقت الدموع في عيون السامعين ولا سيما أمين بك وزوجته الأميرة سلمى.

ثم عاد سعيد إلى إتمام الحديث فقال: "ولكن الله نظر إلى حالي وضعفي ففتح علي باباً للفرج لم أكن أنتظره، وذلك أنني فيما كنت في تلك الحال شاهدت غباراً متصاعداً من بعيد، و لم تمض مدة حتى رأيت أعلاماً وفرساناً فعلمت أنها شرذمة من الجنود المصريين سائرة في أثر الهاربين، فأومأت إليهم بيدي، فشاهدني أحدهم وهرول إلي وتبعه آخرون، فسألوني عن حالي فأشرت إليهم أني من أنصارهم ولكني ضعيف فحملوني إلى معسكرهم وعالجوني بما وصلت إليه أيديهم.

"وكتب الله شفائي، فلما أكلت واسترجعت صوابي سألوني فأنبأتهم بأني كنت من رجال إسماعيل باشا وأخذت أسيراً جريحاً ونصحت لهم بأن يرجعوا عن تعقب أولئك الفارين لأنهم لا ينالون منهم وطراً، فأذعنوا لمشورتي وعادوا جميعاً إلى جهات شندي وأنا معهم، وكنت قد اعتزمت إن استطعت المسير أن أسارع إلى الرجوع لسيدتي، لأرى ما تم من أمر سيدي، فأقمت بشندي حيناً وأنا لا أزال ضعيفاً لا أستطيع الأسفار، وقد لازمتني الحمى فمضى علي سنتان في مثل هذه الأحوال و لم أكاشف أحداً بمقاصدي.

"ثم انتقل معسكرنا إلى مدينة الخرطوم، فشاء حظي السيء أن تزل قدمي وأن أحاول النـــزول إلى سفينة سودانية فكسرت من عند الفخذ، فلبثت في الخرطوم أعواماً وفخذي لم يجبر كسره، لأني لست شاباً و لم أستطع مداواته كما يجب.

"وبعد أن كادت تشفى، جاء الخرطوم والٍ اسمه خورشيد باشا من قبل محمد علي باشا عزيز مصر، وأهل السودان كما لا يخفى على سيدي يتخذون بيوتهم من الجلود والقش، لكن هذا الوالي أصدر أمره إلى أهل الخرطوم بأن يبنوها

بالآجر (القرميد) ففيما أنا سائر يوماً سقط علي جدار لم يكن قد أقيم كما ينبغي فانكسرت ساقي مرةً ثانيةً، وقطعت الأمل من الشفاء.

"وأراني قد أطلت الحديث عليكم، وما نحن في مقام أقاصيص مكدرة فأقول بالاختصار: "إني لبثت أعواماً أخرى وأنا أطبب الكسر، ولا هم لي إلا أن أراكم حتى من الله علي بالشفاء، فقمت من الخرطوم في السنة الماضية، وما زلت أركب تارةً وأمشي تارةً أخرى، قاطعاً الصحاري والسهول والأنهار والبحار حتى وصلت مساء أمس إلى الدير المعهود، فأنبأني رئيسه بما انشرح له صدري، وها أنذا بخير".

فحمدوا الله على عودته سالماً وقال أمين بك: "إن سعدنا الآن قد تم، فلنتم الأفراح. فأتموها وزادوها وأنبأوا الأمير بشيراً بمجيء سعيد فسر بذلك، وكان للاحتفال بقران غريب رنة في سائر أنحاء لبنان، وأنفقت فيه الأموال الطائلة.

ولما كانت سنة ١٨٤٠ اتحدت دول أوروبا مع الدولة العثمانية على إخراج إبراهيم باشا وجنوده من سوريا، وكان الأمير بشير مجاهراً بالانحياز إليه فاستولى عليه القلق والارتباك وجرت في تلك السنة حروب هائلة انتهت على غير المرام لأن الجنود المصريين اضطروا بعد دفاع دام أشهراً إلى الانسحاب من الديار السورية، وكان الأمير بشير محافظاً على اتحاده مع الدولة المصرية اعتماداً على وعود دولة فرنسا بمساعدته، فلما يئس من مساعدتها عزم على أن يسلم للدولة العثمانية، وعلم أن تسليمه يستلزم أبعاد من لبنان فجمع ما لديه من المثمنات في بيت الدين، وجمع أهل داره وأتباعه، وبينهم المعلم بطرس كرامه وهم قاصداً إلى صيدا.

فلما علم أمين بك وأسرته بذلك، تفاوضوا فيما يفعلون، فقر رأيهم على مرافقة الأمير إلى حيث يتوجه، فرافقوه جميعاً.

وفي شهر أكتوبر سنة ١٨٤٠ وصل الأمير بشير إلى صيدا، فاستقبله خالد باشا متسلمها بالإكرام، وأشار عليه بالتوجه بحراً إلى بيروت.

فلما وصلت الباخرة إلى ميناء بيروت بعث السر عسكر يسأل الأمير أن

يختار له مقاماً يقيم فيه غير سوريا ومصر وفرنسا، فاختار مالطة، وأقلعت الباخرة بهم إليها.

وبقي الأمير بشير في مالطا أحد عشر شهراً، ثم سار إلى الأستانة فلما وصل إليها استقبل بإكرام جزيل، وفي اليوم الثاني من دخوله دعاه الصدر الأعظم رؤوف باشا إلى مقابلته، ونظراً إلى ما سبق له من النفور منه لاتحاده مع الجيوش المصرية، أمر أرباب مجلسه ألا يقفوا متى دخل الأمير بشير عليه، تحقيراً لمقامه.

ولما ذهب الأمير لمقابلة الصدر الأعظم، ودخل قاعة الصدارة بما كان عليه من المهابة والوقار وروعة المشيب واسترسال شعر لحيته على صدره. ووقف الصدر الأعظم أولاً ثم وقف سائر الوزراء.

وبعد أن قضى برهة يتحادث في شؤون مختلفة انصرف فقال الوزراء للصدر الأعظم: "أمرتنا ألا نقف للرجل ورأيناك أول الواقفين؟".

فقال: "والله لا أعلم ما الذي أوقفني بالرغم عن إرادتي حالما شاهدت وجهه، ولم أكن أظن أن على وجه الأرض رجلاً بهذه المهابة".

وأمرت الدولة للأمير بدار في قرية أرناءوط كوى على خليج المدينة.

وأما غريب فكان مشتغلاً عن كل شيء بمناظر الأستانة ومبانيها فإنه لم يكن قد شاهد مثل هذه العاصمة قط. وبالإجمال أن أمين بك وسلمى وسليماً وغريباً عدوا أنفسهم من أسعد البشر بعد إجتماعهم، وقد تزوج الولدان واجتمع الشمل.

وفي السنة الثانية توفي الأمير ودفن في الأستانة، ولم يسمع أحد شيئاً عن عائلة أمين بك منذ ذلك الحين.